الموقع الالكتروني : www.lixus-magazine.net
البريد الالكتروني : Lixus@maroc-histoire.com

مجلة ليكسوس

ⵜⴰⵙⵖⵓⵏⵜ ⵍⵉⴽⵙⵓⵙ

مجلة إلكترونية متخصصة في التاريخ والعلوم الإنسانية

العدد الواحد والعشرون
فبراير 2018م



ملف العدد: قضايا تاريخ المهمشين

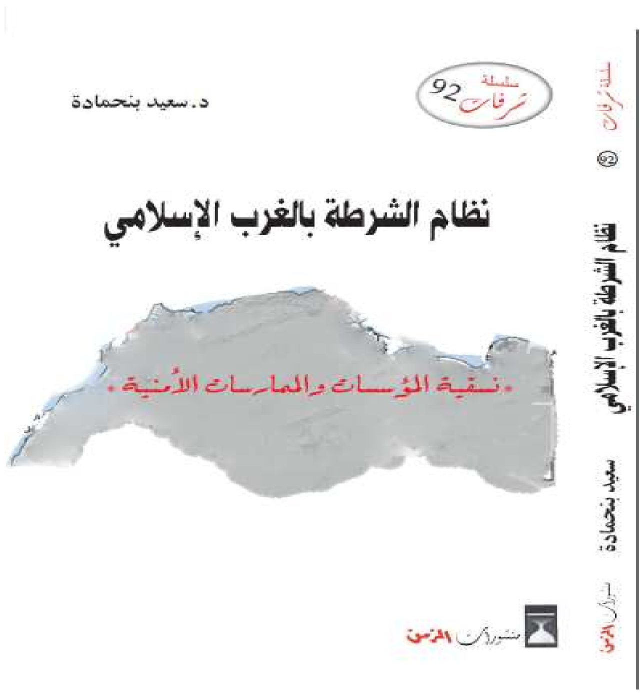
العبيد في تاريخ المغرب المعاصر

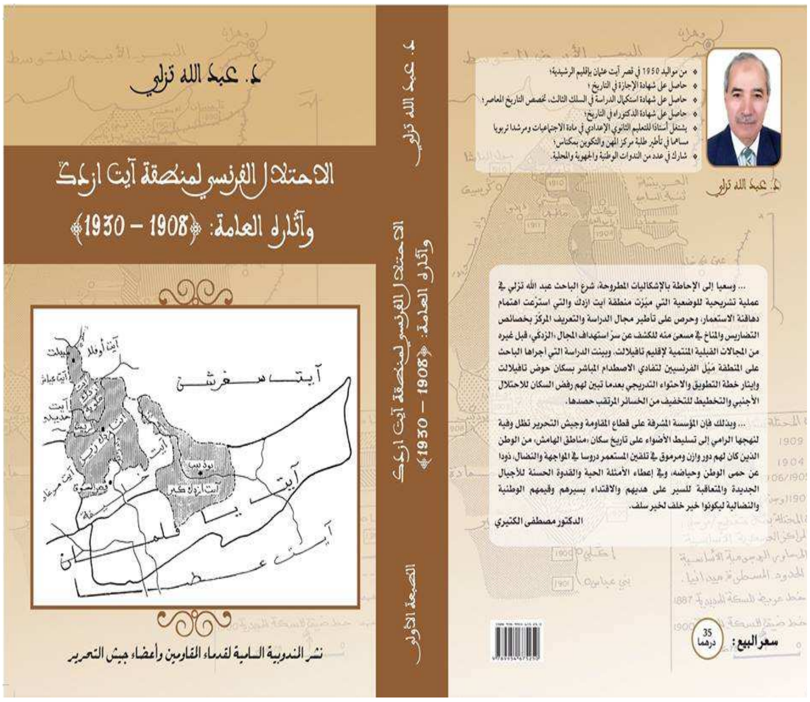
محتويات العدد:

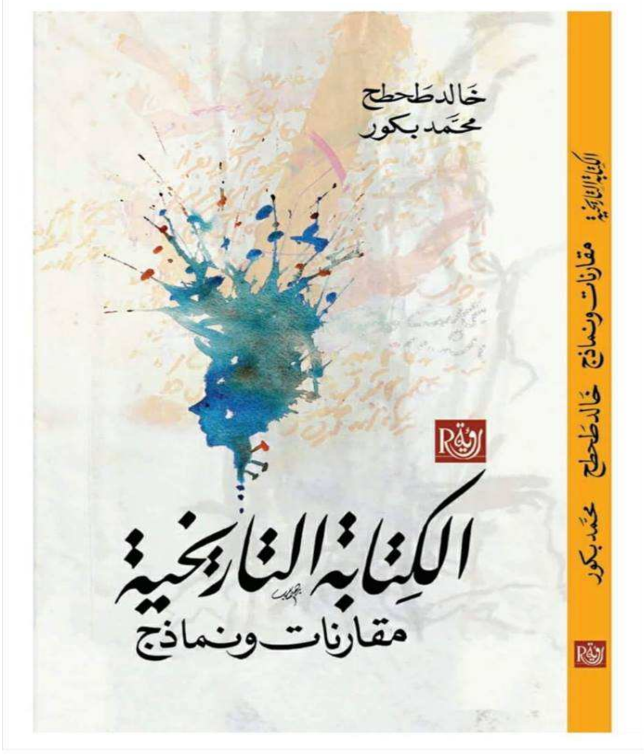
المدير المسؤول: محمد أبيهي

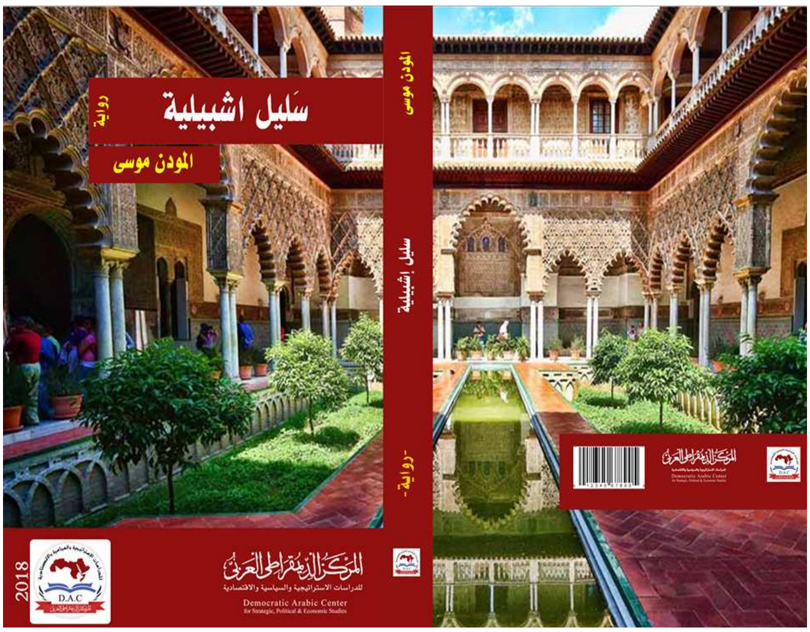


من ثمرات المطابع







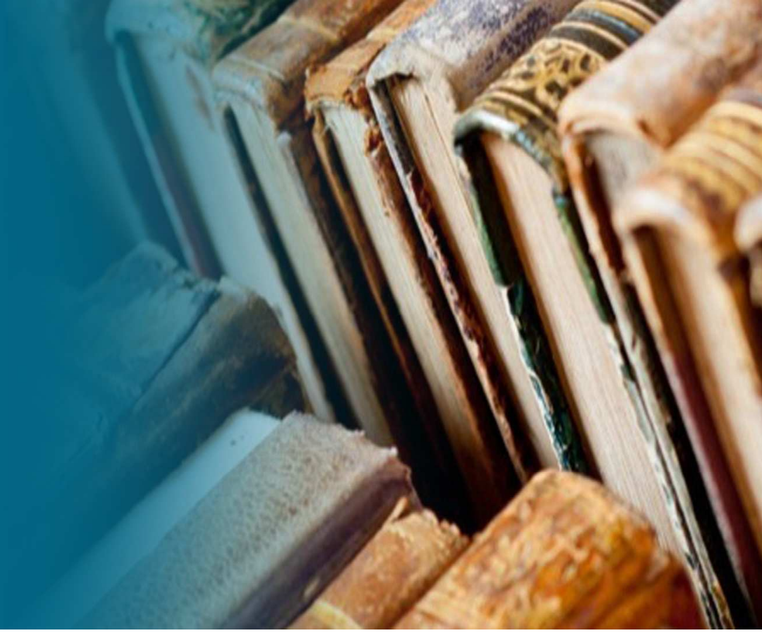


الهيئة العلمية



حمل جميع أعداد المجلة عبر الموقع www.lixus-magazine.net البريد الالكتروني:lixus@maroc-histoire.com





فهرس المحتويات

الموضوعات: **الصفحة**

الإفتتاحية



د.محمد أبيهي
مدير مجلة ليكسوس
الالكترونية

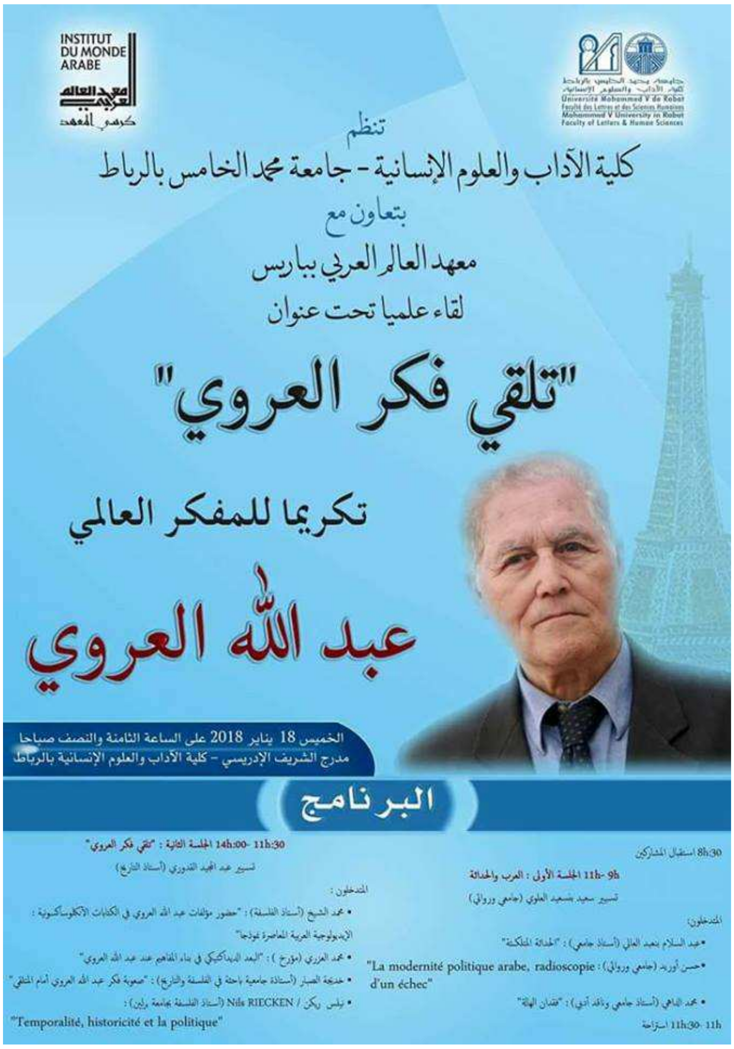


لقد بدأ هذا المولود الالكتروني بإمكانيات متواضعة لهدف رسم معالم خط تحريري، واستطاع أن يوصل إسهامات الباحثين الشباب في التاريخ على نطاق واسع، فرغم ما يقال عن هذه التجربة من كونها لا تستجيب للمعايير العلمية المتعارف عليها،ولكونها عفن فكري، فمجهودات طاقم المجلة المتكون من أساتذة جامعيين وباحثين مرموقين في التاريخ، في اختيار المواضيع العلمية ذات العلاقة بتاريخ المغرب والمغارب مبني على رؤية علمية، وذلك من أجل جعل هذه المجلة الفتية مرجعا تاريخيا لطلاب العلم والباحثين في حقل الدراسات التاريخية بالمغرب وخارجه، فلقد استقبلت المجلة منذ تأسيسها المئات من المقالات العلمية، التي تناولت قضايا تاريخ المغرب والمغارب، كما تضمنت إسهامات في مناهج التاريخ والعلوم الإنسانية، وسعت من خلال ذلك الى جعل هذه المجلة منبرا للباحثين الشباب والمهتمين، وبهذه المناسبة أود أن أوجه شكري الخاص لكل المساهمين في هذه المجلة، وعلى ثقتهم في هذا المنبر العلمي.

يسعد طاقم مجلة ليكسوس الالكترونية أن يضع بين يدي القارئ الكريم هذا العدد من هذه المجلة الالكترونية، وأدرجت المجلة في هذا العدد ثلة من المواضيع المختلفة، وقد أسهم في اغناء محتوياتها باحثين من المغرب وخارجه، وهذا يعكس انفتاح مجلة ليكسوس الالكترونية على كل مختلف تخصصات العلوم الانسانية، وذلك لهدف تثمين التبادل المعرفي والعلمي بين الباحثين، وإيمانا من طاقم المجلة بضرورة ربط أواصر التعاون وتبادل الخبرات بين المهتمين في مختلف تخصصات العلوم الإنسانية، لتكون رافدا ومرجعا علميا للطلاب والباحثين بالجامعات المغربية.

وأملنا جميعا أن تكون هذه المساهمات العلمية إضافة ببيلوغرافية نوعية للقارئ الكريم، وذلك لتسليط الضوء عن بعض القضايا التاريخية، وكلنا أمل أن تكبر مجلة ليكسوس الالكترونية بفضل تفاعلكم معنا قراء وكتابا، وذلك لنشر المعرفة التاريخية على نطاق واسع، وننتظر مساهماتكم ومقالاتكم لاغناء هذا المشروع التاريخي الالكتروني، لكي يكون منارة وقنطرة للباحثين والتعريف بانتاجاتهم التاريخية.

وفي الختام نشكر كل من ساهم في إثراء هذا العدد من مجلة ليكسوس الالكترونية، وموعدنا سيتجدد إن شاء الله في العدد المقبل من هذا المولود الالكتروني، ليواصل إصداراته الالكترونية لتعم الفائدة لدى جميع المهتمين بالمعرفة التاريخية.


INSTITUT DU MONDE ARABE
معهد العالم العربي
تنظم
كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة محمد الخامس بالرباط
بتعاون مع
معهد العالم العربي بباريس
لقاء علميا تحت عنوان
"تلقي فكر العروي"
تكريما للمفكر العالمي
عبد الله العروي
الخميس 18 يناير 2018 على الساعة الثامنة والنصف صباحا
مدرج الشريف الإدريسي - كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط
البرنامج
8h30 استقبال المشاركين
9h -11h الجلسة الأولى : العرب والحداثة
تسيير سعيد بنسعيد العلوي (جامعي وروائي)
المتدخلون:
• عبد السلام بنعبد العالي (أستاذ جامعي) : "الحداثة المتلكئة"
• حسن أوريد (جامعي وروائي) : "La modernité politique arabe, radioscopie d'un échec"
• محمد الناهي (أستاذ جامعي وناقد أدبي) : "فقدان الهالة"
11h-11h30 استراحة
11h30 -14h00 الجلسة الثانية : "تلقي فكر العروي"
تسيير عبد المجيد القدوري (أستاذ التاريخ)
المتدخلون :
• محمد الشيخ (أستاذ الفلسفة) : "حضور مؤلفات عبد الله العروي في الكتابات الأنكلوساكسونية : الإيديولوجية العربية المعاصرة نموذجا"
• محمد العزري (مؤرخ) : "البعد الديداكتيكي في بناء المفاهيم عند عبد الله العروي"
• خديجة الصبار (أستاذة جامعية باحثة في الفلسفة والتاريخ) : "صعوبة فكر عبد الله العروي أمام المتلقي"
• نيلس ريكن / Nils RIECKEN (أستاذ الفلسفة بجامعة برلين) :
"Temporalité, historicité et la politique"


مجلة ليكسوس
Revue Lixus
www.lixus-magazine.net:الموقع الالكتروني
lixus@maroc-histoire.com:البريد الالكتروني



العبيد في تاريخ المغرب المعاصر

إعداد: محمد أبيهي

تقديم:

العبودية ظاهرة قديمة قدم الحضارات الإنسانية، وهي نزعة قائمة على الاستغلال والاستبداد المميز للسلوك الإنساني، ولا يخلو تاريخ المغرب المعاصر من انتشار ظاهرة العبيد في شتى مظاهر الحياة الاقتصادية والاجتماعية، وسأحاول في هذا الملف، التطرق لظاهرة العبيد في قصبات قواد القبائل بالجنوب المغربي، ودور هذه الفئة في الأنشطة الاقتصادية بالمدن والقبائل، إن الحديث عن تاريخ العبيد خلال العصر المعاصر، يثير الكثير من القضايا والتساؤلات الجوهرية، التي تهم هذه الفئات المهمشة، وقد ارتبط العبيد بالمغرب بالتجارة العابرة للصحراء، إذ كان السلطان مولاي إسماعيل(1672-1727) يشتري العبيد من السودان الغربي، وعمل على إدماجهم في جيش عبيد البخاري،[1] وتأتي دراسة ظاهرة العبيد في إطار التاريخ الاجتماعي، الذي يدرس فئات المجتمع، ونشاطها وأدوارها وحركيتها، وتوزيعها وإبراز الظاهرة الاجتماعية في محيطها، وفي علاقتها بمكونات المجتمع داخل إطار تاريخي محدد،[2] والعبيد دخل في علاقة مع السلطة السياسية والمخزنية بحكم انتشاره في مؤسساتها الإدارية والعسكرية.[3]

فأين تتجلى تمظهرات هذه الفئة بدار للمخزن؟ وما هي وظائفها ؟ وما هي مؤشرات، عدم المواطنة لهذه الفئة بالمجتمع؟ ومتى انتهت العبودية بالمغرب؟

---

[1] Jean-Michel Deveau, « Esclaves noirs en Méditerranée », Cahiers de la Méditerranée [En ligne],65 | 2002, mis en ligne le 15 octobre 2004, consulté le 30 septembre 2016. URL : http:// cdlm.revues.org/27,P :4

[2] عبد الإله بنمليح، ظاهرة الرق في الغرب الإسلامي، ،منشورات الزمن، العدد 3 سنة 2002، ص:4.

[3] "لم تطرح قضية العبيد الأفارقة في المغرب إلا في القرن 17 م وذلك في إطار مشكل أثقل كاهل الأمة مدة قرون وهو مشكل الضعف الديمغرافي .. فاضطرت السلطة المركزية إلى تجنيد العبيد وبذلك أضرت بمصالح السكان في المدن والقرى وتسببت في معارضة عنيفة كما هو معلوم في تاريخ المولى إسماعيل " **عبد الله العروي، علاقات المغرب بإفريقيا**، سلسلة الدروس الافتتاحية، منشورات كلية الآداب أكادير ص : 8.



أولا:دور القوافل التجارية في ازدهار تجارة الرقيق بالمغرب:

يعود ازدهار تجارة القوافل التجارية إلى دور الطرق التجارية، التي أحدثها المرابطون بالمغرب الأقصى عبر محاور الأطلس الكبير الغربي لتصل إلى مراكش،[1] وظهرت خلال هذه المرحلة التاريخية قبائل مصامدة الأطلس الكبير،[2] وأمام صعوبة إخضاع سكان الأطلس الكبير واندماج السكان الوافدين مع الدولة الجديدة، اضطر المرابطون إلى إنشاء مدينة مراكش،[3] لتنسجم مع تكويناتهم الاجتماعية والثقافية دعما لسياسة محاصرة المصامدة بالأطلس الكبير، حيث أقاموا مجموعة من الحصون في المناطق الإستراتيجية،[4] وشكلت التجارة بين المغرب الأقصى وجنوب الصحراء مصدرا أساسيا لانتعاش التجارة الداخلية والخارجية، وأصبح المرابطون يتحكمون في محاور الطرق التجارية للمغرب الأقصى كمعبر للتجارة المتوجهة إلى الأندلس وأوروبا،[5] وأصبح بالتالي المغرب الأقصى يلعب دور الوساطة التجارية بين السودان الغربي عبر الصحراء الكبرى وأسواق أوروبا، وعرفت هذه العلاقات التجارية خلال العصر المعاصر تطورا بعد بناء ميناء موكادور على يد السلطان محمد بن عبد الله سنة 1764م، لتعلن ميلاد مرحلة جديدة، حيث شكلت قوافل الإبل المحرك الأساس لهذا الاقتصاد، وتحدث الحسن الوزان عن تاريخ العلاقات التجارية بين المغرب والسودان الغربي، واعتبر تجارة العبيد عنصرا مهما في هذه التجارة،[6] بينما تحدث أحمد بابا التنبكتي

[1] شهد المغرب تطورا في تاريخيه لما تمت وحدته السياسية في إطار دولة الإمبراطورية التي امتدت لأزيد من ثلاثة قرون وتعاقبت فيها ثلاث دول إمبراطورية:المرابطية والموحدية.

[2] الناصري أحمد بن خالد،الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،تحقيق جعفر الناصري،محمد الناصري،الدار البيضاء،1955م،الجزء الثاني،ص:14.

[3] ساهمت سياسة المرابطين تجاه القبائل المصمودية في الأطلس الكبير والمتمثلة في إنشاء مدينة مراكش وانتزاع الدور الاقتصادي لمدينة أغمات التاريخية في إعلان المصامدة الثورة على الدولة القائمة ومناصرة الموحدين ومذهب ابن تومرت.

[4] البيدق أبو بكر بن علي الصنهاجي،أخبار المهدي بن تومرت،1971م،الرباط،ص:90.

[5] حسن علي حسن،الحضارة الاسلامية في المغرب والأندلس،عصر المرابطين والموحدين،الطبعة الأولى،القاهرة،1980م،ص:281

[6] Malowist Marian. Quelques observations sur le commerce de l'or dans le Soudan occidental au Moyen Âge. In: *Annales. Économies, Sociétés, Civilisations*. 25e année, N. 6, 1970.,P :1631 url :www.persee.fr/doc/ahess_0395-2649_1970_num_25_6_422308

-**أنظر كذلك**:

-Abitbol Michel. Le Maroc et le commerce transsaharien du XVIIe au début du XIXe siècle.. In: *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, n°30, 1980. pp. 5-19. www.persee.fr/doc/remmm_0035-1474_1980_num_30_1_1887

على أن تمبوكتو مصدرا مهما تجارة العبيد المتجهة نحو المغرب الأقصى.[1]

قرر السلطان محمد بن عبد الله إغلاق ميناء أكادير أمام التجارة الأوروبية بصفة نهائية، وتأسيس ميناء موكادور، لكون ميناء أكادير تتداوله سلطة بعض الزعامات المحلية، التي كانت لهم رغبة في تأسيس ميناء قريب من مصدر تجارة إفريقيا جنوب الصحراء، كمصدر للذهب والرقيق،[2] فتأسيس مرسى موكادور جاء لحصر مجال النفوذ الأجنبي وتحديد حجم المبادلات، ولتسهيل تحصيل مداخيل التجارة الخارجية عن طريق السلطات المخزنية مباشرة، التي كانت من قبل يستولي عليها الزعماء المحليون بالجنوب من أهل سوس كالطالب صالح،[3] وقد أسهمت الظروف والعوامل السابقة بشكل كبير في كون قوافل الإبل تأخذ طريقها إلى ميناء موكادور حاملة سلع السودان عبر مجموعة من النزالات أو المحطات التجارية الآتية من أعماق الصحراء.

ابتدأت العلاقات بين المغرب والسودان منذ القرن 12م، عندما بدأ الإسلام ينتشر في صفوف الأفارقة، لكن التحول الحقيقي لهذه العلاقات لم يتم إلا في القرن 16م، ولم تتوقف القوافل عن قطع الصحراء الكبرى لربط المغرب بهذا الجزء من إفريقيا عبر خطوط تجارية تمر من الصحراء الكبرى، وازدهرت تجارة القوافل التجارية الآتية من الصحراء والمتجهة صوب ميناء موكادور، وكانت القوافل الآتية من تومبكتو تعبر كل من كولميم أو نون لمطة، وهي إحدى بطون الازدهار التجاري خلال العصر المرابطي، حيث تستقبل أقا وتندوف أرثالا من القوافل التجارية القادمة من عمق الصحراء الكبرى، وعند وصولها مشارف مدينة أكادير تتجه شمالا إلى موكادور، لتمر عبر مجموعة من النزالات.[4]

إلى جانب ذلك، تلعب النزايل دورا مهما في استراحة القوافل التجارية الأتية من عمق الصحراء ويلزم على تجار القواقل بأداء رسوم وواجبات لضمان تأمينها،[5] ونجد عبر محاور التجارية الرابطة بين أكادير وموكادور العديد من النزايل التي تستقبل القوافل القادمة من الصحراء،[6] وارتبطت تجارة القوافل العابرة للصحراء بشبكة من العلاقات الاجتماعية، وقد لعبت

[1] John O. Hunwick, AḤMAD BĀBĀ ON SLAVERY, Sudanic Africa, Vol. 11 (2000), Centre for Middle Eastern Studies (University of Bergen),P :138
URL: http://www.jstor.org/stable/25653344
-أنظر كذلك:

-Abitbol Michel. Le Maroc et le commerce transsaharien du XVIIe au début du XIXe siècle.. In: *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, n°30, 1980. pp. 5-19. www.persee.fr/doc/remmm_0035-1474_1980_num_30_1_1887

[2] أفا عمر، الأبعاد التاريخية لاقتصاد أكادير في القرن 19م، ندوة مدينة أكادير الكبرى 1990 المحور التاريخي منشورات كلية الآداب، ج، ابن زهر ص 231 و 233.

[3] الصديقي محمد بن سعيد،إيقاظ السريرة لتاريخ الصويرة،البوكيلي للطباعة والنشر،الطبعة الثانية،2001،ص:28.

[4] النزايل هي محطات استراحة القوافل وتنظيم مرورها بواسطة "نظام مؤسسة ارفاكن"التي تضمن حماية مرور القوافل بالمناطق الداخلية الوعرة لتفادي نهبها،ويعني مصطلح "أرفاك" بالأمازيغية مرافق قوافل الإبل والمسؤول عن توجيهها في المسالك التي لا يعرفها أهل القافلة، وترتبط مهمته على دراية بالمعارف الجغرافية والفلكية وأورد أبو حامد الأندلاسي وصفا لدور الأدلاء في تجارة القوافل بالمغرب قائلا‹‹...فيخرجون من بلدة يقال لها سجلماسة آخر بلاد المغرب فيمشون في رمال كالبحار ويكون معهم الأدلاء يهتدون بالنجوم وبالجبال في القفار ويحملون الزاد لستة أشهر...›› ،حسن علي حسن،الحضارة الإسلامية في المغرب والأندلس،مرجع سابق،ص:283.

[5] الخديمي علال،من التاريخ الاجتماعي للمغرب،مؤسسة النزايل والمواصلات الداخلية والتدخل الأجنبي خلال القرن 19م،ندوة التجارة وعلاقاتها بالمختمع والدولة عبر تاريخ المغرب،الجزء الأول،منشورات كلية الآداب،عين الشق الدار البيضاء،1992،صص193 و 194.

[6] أبرزها نزالة بوشان بقبيلة اداوكرض واداوكيلول ونزالة لوضا وامي أمسدناس....

فيه الزاويا الدينية والمرابطون الموجودون في زوايا الجنوب المغربي دورا مهما في توفير الأمن لهذه القوافل، نظرا لعجز المخزن على توفير الحماية لمحاور هذه التجارة.[1]

كانت أكثر المواد المصدرة من تمبكتو هي العبيد والعاج والذهب والصمغ، وكلها مواد موجهة للسوق المغربية الداخلية، وكانت التجارة الصحراوية عند نهاية القرن 18م مزدهرة رغم التوسع الأوروبي على طول السواحل الأطلنتية، وقدر حجم القوافل الكبيرة المنطلقة من الصحراء الكبرى إلى تندوف في اتجاه ميناء موكادور ب 10000 جمل،[2]مما ساهم في الازدهار التجاري للمرسى بوصول المواد المصدرة من تمبكتو، وكتب القنصل الفرنسي بموكادور عن هذه التجارة قائلا:‹‹من المثير للاستغراب أن يفضل هؤلاء العرب أن يعبروا صحراء مترامية الأطراف مشيا على الأقدام مدة أربعين يوما لبيع ما في حوزتهم من الصمغ في موكادور،وذلك على الرغم من وجود سوق في فور لوي...ولعل السبب في ذلك هو أن الفرق بين أثمان مختلف أنواع الصمغ في موكادور ضخم، بما يكفي لجعل هؤلاء العرب يعبرون صحراء شاسعة يواجهون فيها صعوبات ومتاعب شتى، ألا يمكن شركة السينغال أن تمنع تصدير الصمغ إلى موكادور؟››.[3]

من المرجح أن يكون استقرار هذه الفئة بالمغرب، ناتج عن ازدهار تجارة الرقيق خلال العهد السعدي، وذلك خلال مرحلة اتساع رقعة الدولة في أطراف إفريقيا جنوب الصحراء، ويقول عبد الله العروي في هذا الصدد:"**لا شك أن تجارة الرقيق كانت معروفة في المغرب وفي إفريقيا عامة وبالتالي كان الرقيق ضمن البضاعة المجلوبة من الجنوب إلى الشمال**"،[4] وكانت فئة العبيد خلال العهد السعدي تستخدم في معمل قصب السكر الذي أقامه السعديون باحاحان وتارودانت خلال القرن 16م، وشكلت مراكز اقتصادية لاستقرار هذه الفئة، إذ عمل أحمد المنصور الذهبي على جلب العبيد للاشتغال في معاصر السكر،[5] وكذلك الأسرى المسيحيين في معركة وادي المخازن، حيث سجنوا في مراكش بالقرب من قصر البديع.[6]

وظلت قبائل الجنوب المغربي منذ القرن 18م،معبرا تجاريا لمرور الرقيق في اتجاه الصويرة، اللذين يستوردهم التجار المغاربة من تومبكتو في فترة من فترات ازدهارها التجاري،ويقول دانييل شروتر(*Daniel J Schroeter*) في هذا الصدد:"هناك أسواق أخرى لا تنشط فيها الحركة كما هو حال سوق العبيد إلا في المناسبات التي تصل فيها إلى المدينة قوافل تجارية قادمة من قلب الصحراء الإفريقية، ولم

[1] شروتر دانييل،تجار الصويرة،المجتمع الحضري والامبريالية في جنوب غرب المغرب 1844-1886،تعريب خالد بن الصغير،منشورات كلية الآداب،أكدال،الرباط،سلسلة نصوص وأعمال مترجمة،رقم 6،الطبعة الأولى،1997م،ص:174.

[2] شروتر دانييل،تجار الصويرة،مرجع سابق،ص:181.

[3] نلاحظ من خلال هذا النص مدى الاستغراب الذي انتاب من إصرار القوافل التجارية على مواصلة نشاطها التجاري بين تومبكتو وموكادور رغم التوسع الاستعماري بافريقيا جنوب الصحراء،هذه التجارة التي تركت معالم ثقافية بموكادور بحضور ثقافة الصحراء في العادات والتقاليد التي نقلتها القوافل التجارية،المرجع نفسه،ص:207.

[4] عبد الله العراوي، علاقات المغرب بإفريقيا ملاحظات أولية، م.س : ص : 8

[5] محمد رزوق، ملاحظات حول الوجود المغربي بالسودان خلال فترة أحمد المنصور الذهبي(1578-1603م)،ضمن أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب - الجزء الثاني،فبراير 1989 م،كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالدار البيضاء،ص:289.

[6] Charles Serfass ,Les esclaves chrétiens au Maroc du XVI e au XVIII e siècle, Bulletin de la Société de l'Histoire du Protestantisme Français (1903-), Vol. 79, No. 2(Avril-Juin 1930),Librairie Droz, P :228 Stable URL: http://www.jstor.org/stable/24290003,

تكن هناك أماكن قارة مخصصة لبيع الرقيق، بل كان الدلال يسوقهم عبر شـــوارع المدينة وأزقتها مناديا بالثمن الذي قد يتغير حسب المزاد العـلني ..؟"،[1]

وكانت تجارة العبيد مظهرا من مظاهر تجارة مرسى الصويرة،إلا أن العدد تقلص في أواخر القرن 19م،نتيجة تدهور التجارة مع السودان من جهة، ومنع بعض الدول الأوروبية لتجارة العبيد،ويعتبر موسم سيدي أحمد أموسى بسوس من بين مصادر الرقيق الرئيسية، باعتبار الدور الاقتصادي التجاري الذي اضطلعت به الزاوية خلال القرن17 م، ولكونها ملتقى للقوافل التجارية الآتية من إفريقيا جنوب الصحراء، فإلى جانب دورها الاقتصادي نجدها مركزا دينيا وصوفيا،[2] حيث كانت تعرف حركية تجارة الرقيق، بالإضافة إلى بروز دول محلية تعتمد على تجارة الرق كمورد أساسي في إفريقيا جنوب الصحراء، وتتعامل مباشرة مع دول الشمال خصوصا المغرب الأقصى الذي شكل معبرا لتجارة للرق.[3]

ثانيا:العبيد في المجتمع المغربي:

تحدثت مصادر التاريخ عن ظاهرة الاسترقاق بالمغرب، وانتقدت أغلبها هذه التجارة، وأثيرت حولها نقاشا فقهيا، وقد سخط الناصري من استرقاق أهل السودان، وأنهم من أحسن الأمم إسلاما،[4] وقد قدر القنصل الفرنس بفاس لويس دوشنوي(Louis de Chenier)(1722-95) عدد جيش عبيد البخاري بـ 100 ألف خلال عهد المولى إسماعيل.[5]

وأصبحت فئة العبيد جزءا من المجتمع المغربي منذ الحقبة الحديثة، واستطاعت تحقيق الاندماج مع خصوصـيات المجتمـع المغـربي، ولا يوجـد العبيـد في المغرب إلا في الزوايا الدينية، وفي دار المخزن وقصبات قواد القبائل والباشوات، ويرد دانييل شروتر أن العبيـد أتـوا إلى الصـويرة بعـد تأسيسـها، لتكـون فئـة العبيـد عنصرا فاعلا في الحياة الاقتصادية التجارية بالمرسى،[6] إلا أنهـا عرفـت انتشـارا واسـعا بـدار القيـادات المحليـة، واشتغلت في الحقول والأعمال الشاقة، وقد شكلت يدا عاملـة عنـد الأسر القائديـة المخزنيـة بحكـم نفوذهـا المادي والسلطوي بالقبائل، وانخراط العبيـد في الحيـاة الاقتصـادية، وسـاهموا في معظـم الأنشـطة الزراعيـة والحرفية والتجارية، ولكن الموضـوع ظـل يثير فضـول البحث المتخصص في بعـض جوانبـه، التـي مـا تـزال في حاجــة إلى التقصي ــ والبحـــث مثـــل أعـــداد العبيـــد وأنواعهم، وطبيعة أعمالهم، ومتى انتهت العبوديـة في المغرب؟ وهل استمرت العلاقات العبودية القديمـة إلى وقت متأخر ومحدد في تاريخ المغرب المعاصر؟[7]

تحتضن القيادات المحلية في مقر إقامتها خدما من العبيد يزيد عددهم أو ينقص حسب ثروة

[1] شروتر تجار الصويرة،مرجع سابق،ص: 138 .

[2] خديجة الراجي، الحركة الجزولية في سوس، مقال غير منشور، ألقي في فعاليات منتدى التاريخ، كلية الآداب، جامعة ابن زهر أكادير، 2004 .

[3] Miege Jean-Louis. Le commerce transsaharien au XIXe siècle. In: *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, n°32, 1981. ,P :99
url :www.persee.fr/doc/remmm_0035-1474_1981_num_32_1_1922

[4] أحمد بن خالد الناصري،الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى،تحقيق محمد الناصري،الدار البيضاء،1954م،صص:131-132

[5] Chouki El hamel,THE REGISTER OF THE SLAVES OF SULTAN MAWLAY ISMA'IL OF MOROCCO AT THE TURNOF THE EIGHTEENTH CENTURY,
The Journal of African History, Vol. 51, No. 1 (2010),Cambridge University Press P:93.
URL: http://www.jstor.org/stable/40985003

[6] تتواجد بالصويرة زاوية العبيد وهي ملتقى خاص بالعبيد ولا تتوفر لدينا أية معلومات عن تاريخ تأسيسها أو إن كانت سابقا مقرا لبيع العبيد .

[7] "ليس للإسترقاق الجماعي أصول محددة تاريخيا وهو على أي حال أحد أقدم مظاهر الحياة البشرية التي نشأت عن الحروب والغارات وتسلط الأقوياء على الضعفاء" إبراهيم حركات، النشاط الإسلامي في العصر الوسيط، منشورات إفريقيا الشرق : ص 12

القائد ونفوذه وعدد نسائه، وهذا يؤدي حتما إلى شراء عدد كبير من العبيد من أجل الخدمة المنزلية، كما هو حال قياد متوكة، كمسعود المتوكي وعبد المالك المتوكي الذي يزيد عدد نسائه عن الأربعة الشرعيات، وجاء على لسان الحسن الأول مخاطبا حاجبه باحماد بخصوص نفوذ مسعود المتوكي قائلا: " أنظر إلى أملاكه الكثيرة وممتلكاته الثمينة، وأراضيه ذات القيمة الكبيرة وفي الحقيقة لا يجب اعتباره عدوا للمخزن بل دعامة له، فعلينا تركه في أمان، ونستقبل قبيلته دائما بارتياح أكبر..." [1] وهذا في الحقيقة مظهر من مظاهر حياة الترف والجاه التي عاشها هؤلاء القياد بسبب التحايل على الرقابة المخزنية، وتقوية نفوذهم وثرواتهم والزيادة من عدد العبيد في دار المخزن،فهي حسب الرواية الشفوية مصدر الأحكام الخاصة بتنظيم شؤون القبائل والمتحكمة في فعالياتها التنظيمية من تحصيل الضرائب والمستفادات، وإقامة المواسم في القبائل، وكانت فئات العبيد تعامل بشتى أساليب الاستغلال.

يرتبط العبيد بالليالي الكناوية التي اعتاد عبيد البخاري المجندون زمن المولى إسماعيل إحياءها في القصبات والحصون العسكرية، الموزعة على امتداد البلاد المغربية والمسماة بالقصبات الكناوية،[2] ففي مدينة موكادور تأسست زاوية سيدنا بلال أو زاوية كناوة التي ظلت مأوى لإقامة العبيد، وتقام كذلك مواسم اسمكان بالقبائل المجاورة التي عرفت قديما استقرار العبيد، الذي ارتبط بظاهرة الرق التي عرفها الجنوب المغربي منذ وصول السعديين إلى ممالك إفريقيا الغربية،وتعود الأصول الثقافية لهذه الرقصة إلى إفريقيا جنوب الصحراء وتعتمد على الرقص الجماعي لفئة اسمكان وتعبر في مجملها عن معاناة الرق وحياتهم اليومية داخل أوراش العمل.وترتكز رقصة اسمكان ذات الأصول الإفريقية على طقوس يحتل فيه الحفل المكانة البارزة، الذي يقام على شرف ملوك وملكات الجان، حيث تحظى بطابع القداسة لدى فئة اسمكان، وتأتي عملية ذبح الذبيحة في مكان يسمى تاكركورت،[3] وخصص الباحث الأنتروبولجي جورج لاباساد دراسة للأصول الإفريقية لموسيقى كناوة، واعتبرها ارثا غنائيا جسد معاناة العبيد بالمغرب.[4]

يتجلى حضور العبيد من خلال الروابط والعلاقات التي نسجت بينهم وبين سائر أفراد أسرة القائد، التي يصعب من خلالها ترصد خطوات العبيد في حياتهم اليومية، تلك الخطوات التي جردتهم من هويتهم الإنسانية، وفرضت عليهم تراتبية، لذلك سوف أقوم بإثارة معالم بارزة في حياة العبيد، وعلاقتهم بالقواد من خلال الأسماء والتصنيفات المورفولوجية، التي تقاس به جودة العبيد من خلال استقصاء الرواية الشفوية.[5]

تعكس وظائف فئة العبيد مظهرا من مظاهر التراتبية بدار القائد، فهم يعملون في الأعمال الشاقة، ومكلفون بحفر الآبار وأعمال البناء، وهو ما تعكسه

---

[1] لويس أرنو، **زمن المحلات**، م.س، ص: 56

[2]- P .Jemma,les confères noires et les noires et les rituel de la Derbla a Marrakeche;T ;XIX1971.P243.

[3] تعني بالأمازيغية مكان تجمع الأحجار حيث تقام فيه طقوس الذبيحة خارج مكان الحفل.

[4] Lapassade Georges. Les gnaoua d'Essaouira : Les rites de possession des anciens esclaves noirs au Maghreb, hier et aujourd'hui. In: *L'Homme et la société*, N. 39-40, 1976. Tiers-Monde économie politique et culture. pp. 191-215.url : www.persee.fr/doc/homso_0018-4306_1976_num_39_1_1636

[5] تختلف أسماء العبيد، وغالبا ما يكون لهذه الأسماء أصول إفريقية أو أمازيغية:- الذكور من العبيد : نجد أسماء : مرزوق –بلال- سالم- الرباح- بركة- الخزوم – بانبارا، وأما *الإناث* : نجد أسماء : مخيرة – ميمونة- زيدة – محجوبة- ملعايد – مباركة – جميعة – حدية- مسعودة

دار القائد من ضخامة البناء، ويكلفون بشؤون النظافة والمطبخ وإعداد الطعام ومزاولة مهنة الحدادة، ويتم تكليفهم غالبا بمهام خارج الدار، أو إرسالهم إلى الزوايا لحاجتها لليد العاملة، فقد جاء في رسالة من القائد محمد أنفلوس موجهة إلى الشيخ محمد بن سعيد أوتلضي ما يلي: **"سلام تام على سيادتك ورحمة الله وبركاته عن خير سيدنا المؤيد بالله وبعد فلا زائد والحمد لله على صميم مودتك ومحبتك إلا الخير، ثم إننا بحول الله وجهنا لحضرتك السعيدة آمة وبنتها وأمها حررناها لوجه الله ورسمها بيدها، ووجهت مع بنتها بقصد معاونتها لديكم في أمور الزاوية أعاننا الله وإياكم على ما فيه صلاح الأعمال..."**.[1]

الجنس	مكان العمل	العدد
إناث	دار القائد	18
إناث	الزاوية	8
ذكور	الزاوية	2

الجدول رقم1: عدد العبيد وأصنافهم ومكان عملهم عند القائد مبارك أنفلوس بقبيلة انكافن الحاحية.
المصدر : كناش 96، بيان تركه بعض القواد (1296-1305) الخزانة الحسنية.

وغالبا ما يتعرض ذكور العبيد لعملية الخصاء، أي تجريدهم من فحولتهم،من أجل التأثير في مسار حياة العبد وسلوكاته الجنسية،[2] وأغلب الروايات الشفوية ترى أن عملية الخصاء عند دار القيادات نادرة إلا في حالات خاصة، وتحتضن مقر إقامة القائد خدما من العبيد يزيد عددهم أو ينقص حسب ثروة القائد ونفوذه وعدد نسائه، كما هو حال قواد متوكة، كمسعود المتوكي، وعبد المالك المتوكي الذي يزيد عدد نسائه عن الأربعة الشرعيات، ويشغلون مئات العبيد في استغلاليات القائد وفي أنشطة فلاحية متعددة كجني الثمار والحصاد في إطار نمط إنتاج قائدي، وكانت لهم أحياء تسمى دور العبيد للتمييز بينهم وبين الساكنة.

خلاصة:

في ختام هذا الملف، الذي تطرق من خلاله الى العبيد في تاريخ المغرب المعاصر، كنموذج لدراسة تاريخ المهمشين في التاريخ، حيث ظلت هذه الفئة فاعلا حقيقيا في المجتمع المغربي، وقد انتهى زمن العبودية والاسترقاق بعد خضوع المغرب لنظام الحماية الفرنسية، الذي منع تجارة العبيد منذ العشرينيات من القرن الماضي، وقد تعرض المغرب قبل ذلك لانتقادات المنظمات الأوربية والقنصليات الممثلة بطنجة، التي كانت تعاين عمليات بيع وشراء العبيد بأسواق النخاسة، وعملت على إرسال تقارير الى بلدانها،للضغط على المخزن لانهاء هذه التجارة، وكانت مادة دسمة للصحف البريطانية آنذاك،[3] وقد ارتبط التاريخ الاجتماعي لفئة العبيد بالعديد من الظواهر الاجتماعية والثقافية،مازالت الى يومنا هذا متجذرة في العمق المغربي، وكان بناء الدولة الوطنية بعد الاستقلال حاسما في اندماجها الاجتماعي، رغم وجود بعض الممارسات التي تنتهك من قيمتها.

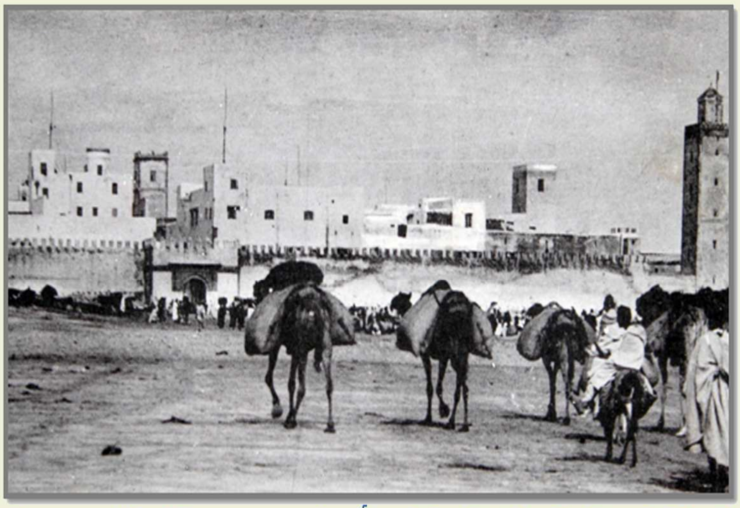
---

[1] رسالة مؤرخة في 17 رمضان المعظم عام 1319هـ توقيعها كتب فيه : محمد أنفلوس لطف الله به،
المصدر:**المتعة والراحة في تراجم أعلام حاحة،مطبعة النجاح الجديدة - الدار البيضاء،1995م.**

[2] د. عبد الإله بنمليح، **ظاهرة الرق في الغرب الإسلامي**،م.س،منشورات الزمن، العدد 3 سنة 2002، ص:83

[3] أنظر في هذا الصدد:
-John Vincent Crawford,Morocco: report to the committee of the British and Foreign Anti-Slavery Society,
LSE Selected Pamphlets,
1886.URL:http://www.jstor.org/stable/60221959

الملحق



قوافل تجارية تدخل أبواب مدينة الصويرة



فتاتين في سوق النخاسة بسوس



بيع العبيد بمدينة الصويرة موكادور



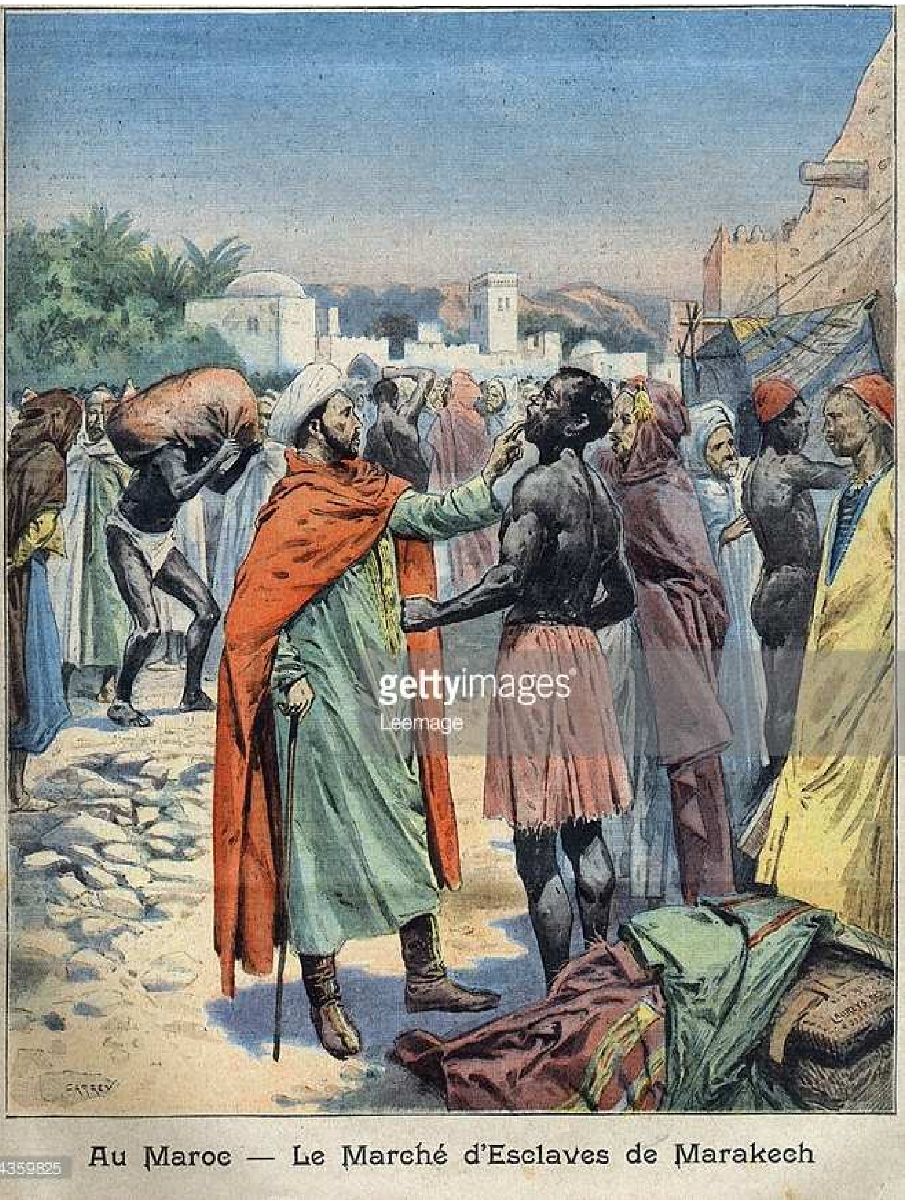


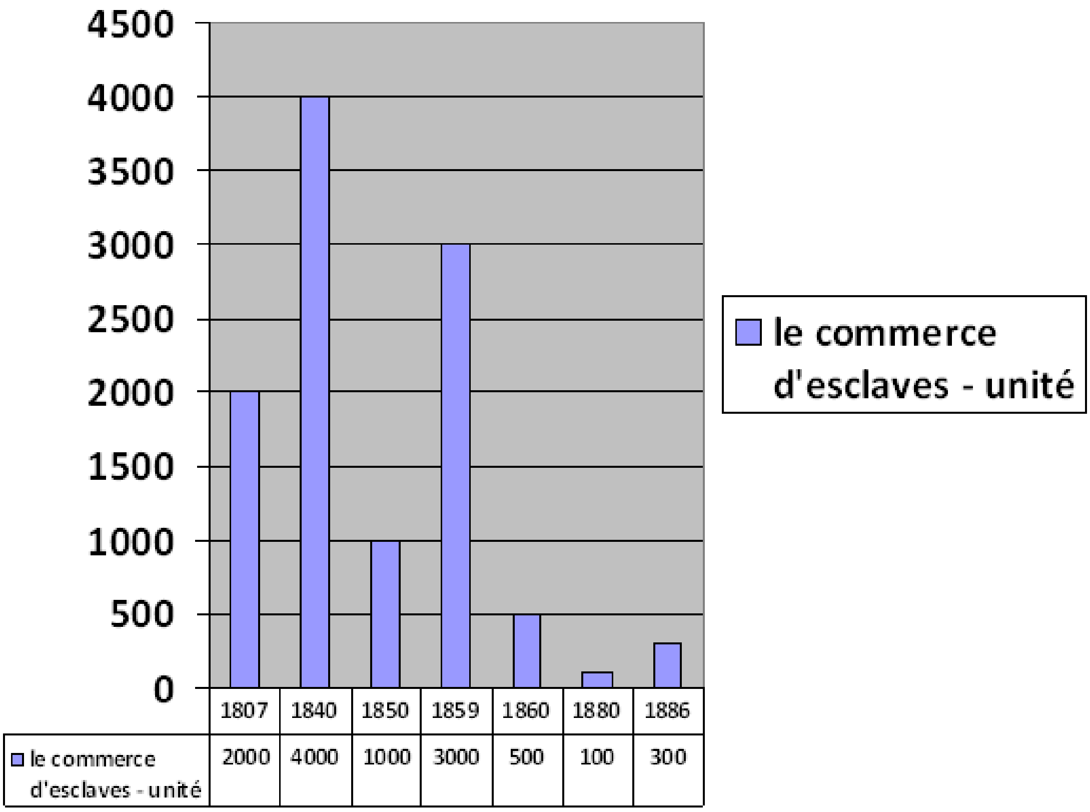
خريطة رقم 1:محاور التجارة بين المغرب وافريقيا جنوب الصحراء

المصدر:

-Miege Jean-Louis. Le commerce transsaharien au XIXe siècle. In: *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, n°32, 1981. P :95

www.persee.fr/doc/remmm_0035-1474_1981_num_32_1_1922





رسم مبياني رقم 1:تطور تجارة العبيد بالمغرب ما بين 1807م و 1886م.

المصدر:

-Miege Jean-Louis. Le commerce transsaharien au XIXe siècle. In: *Revue de l'Occident musulman et de la Méditerranée*, n°32, 1981. P :116
www.persee.fr/doc/remmm_0035-1474_1981_num_32_1_1922



رسالة العلامة القاضي العربي بردلة إلى السلطان المولى إسماعيل العلوي في قضية الحراطين



د.خالد الصقلي
أستاذ باحث في التاريخ
كلية الآداب - ظهر المهراز
فاس

تقديم:

لقداشتهر السلطان العلوي المولى إسماعيل(1082ـ 1139هـ /1672ـ1727م)في تاريخ المغرب عامة و تاريخ الدولة العلوية على الخصوص بسياسته العسكريةالصارمة،إذ حاول أن يحدث في هذا المجال نقلة نوعية تمكن الدولة من جهاز عسكري مستقل عن الخريطة القبلية للمغرب،فقام بتشكيل جيش أسود يضم العبيد والعناصر السمراء اللون التي كانت تسكن الواحات الجنوبية منذ أقدم العصور وتعرف باسم الحراطين.وقد أعطت هذه السياسة أكلها على المستوى السياسي و العسكري حيث مكنت الجهاز المخزني الاسماعيلي اناذاك من فرض سلطته و هيبته في كل الجهات التي كانت تشكل التراب المغربي و ذلك خلال ظرفية داخلية جد حرجة،كما ساعدت على مواجهة الخطر الخارجي و طرد النصارى من بعض الثغور المحتلة كالمهدية والعرائش وطنجة،غير أن شهرة السياسة العسكرية الإسماعيلية لا تعود فقط للنجاحات التي حققتها و إنما أيضا للمعارضة المتميزة التي شهدتها هذه السياسة خاصة في جانبها التنظيمي.

فقد ناهضها المغاربة بمختلف شرائحهم،ولاسيما العلماء و الحراطين انفسهم، وبهذا كانت محاولة المولى إسماعيل بمثابة إحداث نقلة نوعية في التنظيم العسكري وراء إحداث نقلة مماثلة في علاقة المجتمع بالتنظيم العسكري الذي تنهجه السلطة المركزية،فكان اعتراض العلماء منصبا على الأسلوب الذي اتبعه في تشكيل جيش البخاري من حيث التجنيد الإجباري و تمليك المسلمين الأحرار،وقاموا بتمكين الحراطين من السند الشرعي في مطالبتهم بالاحتكام إلى التشريع الإسلامي،وبالمقابل أبانت هذه المسألة عن الأهمية البالغة والمكانة المتميزة التي كانت لعلماء فاس في تلك المرحلة،إذ بحكم الظروف التي مر منها المغرب منذ موت السلطان المولى أحمد المنصور السعدي سنة 1603م إلى زمن المولى إسماعيل أصبحت فاس عاصمة علمية للمغرب قاطبة وخاصة بعد القضاء على اهم المراكز العلمية المنافسة لها مثل زاوية الدلاء ومركز إيليغ.ولهذا كان من المنطقي أن يتزعم علماء فاس هذه المعارضة التي مرت من مراحل مختلفة كان للتكتيك المخزني فيها الدور الحاسم.

وكانت المراسلات بين المولى إسماعيل وشيوخ العلم بفاس في موضوع جيش البخاري تعود إلى سنة(1104هـ ـ1692م)وربما قبل ذلك بقليل([1]).

---

[1]) انظر:*محمد القادري،نشر المثاني،ج1،م.س،ص205.*محمد المهناوي،"الفصل الأخير في معارضة علماء فاس تمليك الحراطين"الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد الاشتراكي.ع367،يوم الأحد 1-8-1993،ص4ـ 5.*نفيسة الذهبي،الزاوية الفاسية،م.س،ص253- 269.



خلق مؤسسة جيش البخاري:تجمع مختلف المصادر التاريخية التي عاصرت السلطان مولاي إسماعيل، على كون شخصية هذا السلطان كانت شخصية عسكرية بامتياز، ويعزى ذلك إلى التكوين الذي خضع له والتجربة القيادية التي كان يتمتع بها، والعقيدة العسكرية المغربية الأصيلة التي كان يؤمن بها. مما أعطى لمرحلة حكمه استثناء في تاريخ المغرب الحديث، ووضع البلاد ضمن الدول المهابة الجانب بالبحر الأبيض المتوسط في وقت عرفت فيه الدول الأوربية نهضة سياسية واقتصادية وعسكرية مهمة.لم يكن المغرب ليتبوأ تلك المكانة وأن يسترجع تلك الهيبة التي أسس لها الأمراء والسلاطين المغاربة من ذي قبل لولا التنظيم العسكري المحكم والتكوين النظري المركز، الذي اعتمده السلطان مولاي إسماعيل، حيث تمكن من تكوين أول جيش منظم ومحترف في تاريخ المغرب، استطاع به القضاء على الثورات الداخلية وإخضاع المتمردين، خصوصا عندما كان خليفة لأخيه على مدينة فاس، وقصد إقليم سوس لتمهيده سنة 1670م، كما تمكن في العام 1671 من القضاء على ثورة أحمد ابن محرز بناحية مراكش والخضر الغيلان بناحية الهبط وإخوته بجبل ساغرو وابنه بتادلة، وعلى من تبقى من الدلائيين؛ إذ انه أقام في توحيد المغرب وحروب الثوار والخوارج على الدولة أربعا وعشرين سنة لم يقم بها في داره سنة واحدة([1]).وقد وصل نفوذه إلى تخوم السودان وحدود تلمسان وهو ما يشير إليه اليفرني في النزهة حيث قال:"**(...)وانتشرت دولته في عماير السودان(...)،وامتدت مملكته من جهة الشرق إلى نواحي تلمسان**."

الجيش المغربي على عهد السلطان مولاي إسماعيل:

استفاد السلطان مولاي إسماعيل من التجربة القيادية التي تمتع بها عندما قضى زهاء سبعة سنوات واليا لأخيه على مدينة مكناس، واحتك عن قرب بأبرز القيادات العسكرية المتمردة، التي كانت تقود القبائل ضد السلطة المركزية، مما أكسبه خبرة كبيرة اطلاعه كذلك على ما يجري في الدول المجاورة، خصوصا بأتراك الجزائر ونموذج الانكشارية، ومحاولته إيجاد بديل للجيش المغربي التقليدي المرتبط في غالب الأحيان بالقبيلة والذي شكل قوته العسكرية عند في بداية حكمه، هذا الجيش التقليدي ارتكز على العناصر التالية:

-**قبائل الجيش**:عرف هذا النوع من العسكر في تاريخ المغرب، خصوصا خلال المرحلة السعدية والعلوية، حيث تقطع بعض الأراضي للقبائل مقابل الخدمة العسكرية أو تجييش عدد من الفرسان يكونون رهن إشارة الدولة في أي وقت، وقد اعتمد العلويون نفس السياسة التي كانت لدى الدولة السعدية، حيث تم

---

[1])ابو القاسم الزياني، الترجمان،م.س، ص. 25

إعفاء تلك القبائل من الكلف والضرائب ما عدا الضرائب الشرعية (الزكاة والأعشار)، وتمتيعها ببعض الامتيازات مقابل خدمتها العسكرية، وقد عمل السلطان مولاي إسماعيل على تطوير هذه التركيبة وغير مواطنها حسب حاجيات الدولة ومتطلباتها.

-**جيش الأودابة**: جمع ودي، وهي قبيلة تنحدر من عرب معقل، كانت تقطن جنوب المغرب استقدمها السلطان مولاي إسماعيل خلال دخوله الثاني لمدينة مراكش، وقد قسمها إلى قسمين، الأول تمركز بمدينة فاس، بقيادة ابن عبد الله بن عطية، في حين ترك الجزء الثاني بمكناس، بعد أن أسند مهمة قيادته لأبي الحسن علي المعروف بأبي الشفرة. وكان القائدان المكلفان بجيش الاوداية يتبدلان القيادة بينهما في بداية تشكيل هذا الجيش إلا أن تم التخلي عن مبدأ التناوب فاستقرت قيادة ابن عطية بمكناس في حين استقر ابن الشفرة بمدينة فاس.وقد قسم السلطان مولاي إسماعيل جيش الاوداية إلى عدة مجموعات كان أبرزها : رحى أهل سوس، وقبائل المغافرة، وقبائل أهل الريف، وقبائل آيت يمور و جيش اشراكة...

-**رحى أهل سوس**:تشكلت هذه الفئة من الجيش الإسماعيلي من قبائل الشبانات وزرارة وأولاد جرار وأولاد مطاع، وكانت في مجملها تنتمي إلى عرب بني معقل، وجعل على رأسهم القائد العياشي بن الزريفيالزراري. وقد ثم نقلهم من قبل السلطان مولاي إسماعيل إلى مدينة وجدة وإلحاقهم بالمغافرةوالاوداية، ومكونا بهم جيشا ضخما.

-**رحى المغافرة**:تعود أصول قبيلة المغافرة إلى عرب معقل التي كانت تستوطن الواحات الصحراوية، وهم من أقرباء السلطان مولاي إسماعيل، وكانوا أصهارا له، حيث تزوج بخناثة بنت الشيخ بكار بن عبد الله المغافري، وقد انتقلوا إلى شمال المغرب بعد الحملة التي قام بها في أقصى الجنوب ووصل إلى شنكيط وتخوم السودان عام 1678، ضمن جيش الودايا بعد أن تصاهر مولاي إسماعيل مع هذه القبيلة عن طريق الهدية التي قدمها الشيخ ابن عبد الله المغافري والتي تتمثل في تقديم ابنته خناثة التي أنجبت للسلطان ولده مولاي عبد الله.

-**رحى أهل الريف**:تمركز هذا القسم من الجيش بالمنطقة الشمالية، وكان يكتسي أهمية خاصة لدى السلطان، نظرا لوجوده في منطقة مهمة ومواجهة للأطماع الأوربية.

إضافة إلى **مجموعة آيت يمور** الذين أنزلهم السلطان مولاي إسماعيل بقلعة تغالين في وسط قبائل آيتأومالو. فضلا **عن جيش اشراكة** الذي أبقاه هذا السلطان بمدينة فاس وأحوازها، لمراقبة تحركات القبائل الأخرى.

و لقد اعتمد السلطان مولاي إسماعيل في تشكيل هذه المؤسسة العسكرية التقليدية على نظام خاص، يستوجب الجاهزية، وسرعة التدخل، بل الأكثر من ذلك تم توطين تلك التركيبة من الجيش المغربي في مناطق استراتيجية، كالحدود المغربية التركية بالجهة الشرقية لمراقبة أي تحرك محتمل للقوات التركية، وداخل القبائل الجبلية، بالعاصمة مكناس ونواحي مدينة فاس. ووفق تخطيط عسكري محكم، عمد السلطان مولاي إسماعيل إلى تقسيم مختلف وحدات جيشه إلى أقسام يطلق عليها رحى، وتتألف من ألف جندي يرأسها قائد الرحى، كما تم تقسيم كل رحى إلى خمسة أقسام على كل مائتي رجل قائد، وكل مائة إلى أربعة أقسام يرأس كل واحدة منها مقدم.وقد احتفظ السلطان مولاي إسماعيل بهذا الجيش وجهزه بمختلف الأسلحة التي كانت متوفرة للدولة آنذاك، وتم تسجيل مختلف عناصره في ديوان الجند، إلا أن هذه الجيوش كانت تعود إلى مواطنها بعد كل عملية عسكرية وعند كل استنفار، حيث يحتفظ السلطان ببعض التشكيلات العسكرية، لتوظيفها داخل الإدارة والحرس السلطاني أو لمراقبة بعض المدن، حيث كانوا يخضعون لولاة تلك المدن. يضاف إلى ذلك اعتماد السلطان مولاي إسماعيل على عناصر فردية، كانت تستخدم في بعض الحركات لضبط الأمن والقضاء على بعض التحركات القبلية، ويمكن الاستشهاد بما قام بها السلطان من تطويع لقبيلة آيتأومالوبفزاز عام 1693، حيث انضم إليه جيش قبيلة آيتيدراسن وقبائل زمور وأهل تذغتوفركلةوغريس.

وتجدر الإشارة إلى أن مختلف هذه القبائل تم إخضاعها من قبل السلطان مولاي إسماعيل جردها من الأسلحة والخيل في عام 1684، ودفعها إلى

الاشتغال بالفلاحة بعد أن قدم لها حوالي عشرين ألفا من الغنم، لكنه يعود فيستعملها لإخماد بعض الفتن وضد القبائل التي تخرج عن سيطرة السلطة المركزية.لقد تنوع الجيش التقليدي الإسماعيلي، فشمل إلى جانب الفرق التي تم ذكرها سابقا، فرقا أخرى، كانت تهم في كل وقت وحين إلى مساعدة الجيش النظامي في حركاته ونذكر منها : رماة المدن وبالخصوص بالمدن الكبرى كمدينة فاس ومدينة مكناس ومدينتي الرباط وسلا، يضاف إليها قبائل الرحل، وقبائل المجاهدين التي تم اعتمادهم من قبل السلطان مولاي إسماعيل، فكانت قبائل الحفص متخصصة في العمليات الجهادية بعد أن قنن هذا السلطان عملية الجهاد ضد الأجنبي، وأوكلت إليها مهمة تحرير بعض الثغور كالمهدية وطنجة والعرائش وأصيلا، وحصار مدينة سبتة.

كما عمل السلطان مولاي إسماعيل في إطار تنويع مكونات جيشه توظيف بعض العلوج الذين كانوا في الجيش السعدي، والأسرى المسيحيين، الذين استخدموا كتقنيين في المدفعية وفي صناعة المفرقعات واستخدامهم في حصار بعض المدن المحتلة.

جيش البخاري أول جيش محترف في تاريخ المغرب:

اكتست مرحلة حكم السلطان مولاي إسماعيل أهمية كبيرة في تاريخ المغرب الحديث، فقد عمل هذا السلطان على توطيد أسس الدولة المغربية الحديثة، ونجح في التصدي لمختلف الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية التي كانت تعرفها البلاد آنذاك، ويعود له الفضل في استرجاع العديد من الثغور المحتلة، وضمان استقرار البلاد وفرض هيبتها، بل تمكن من مجاراة العديد من الشخصيات الأوربية واللعب على أسلوب القوة العسكرية ومتانتها، وعظمة شخصيته المتمرسة .ولعبت فيها زوجته خناثة بنت بكار أدوارا طلائعية في الاستشارات السياسية والعسكرية التي كانت تقدمتها لهذا السلطان الذائع الصيت بين الأمم؛ بل كان محط أعجاب العديد من الرحالة والكتاب بل حتى الرسامين الذين حجوا للمغرب، واستلهموا قصصا مختلفة التوجهات، حيث تجمع جل المصادر على كون السلطان مولاي إسماعيل؛ الذي قضى أكثر من نصف قرن في الحكم؛ كان شخصية استثنائية في تاريخ المغرب، إذ نقل البلاد من الفوضى والتطاحن إلى فرض الأمن والاستقرار في ربوعها .ويتساءل الباحث عن السر الذي يكمن وراء نجاح تجربته العسكرية، وبالتالي عن التركيبة البشرية التي اعتمدها والأسلوب الجديد الذي نهجه في تكوين جيش مغربي مستقل عن القبيلة وضغوطها وعن العصبية ومطامحها.

ولقد سبقت الإشارة إلى حالة المغرب خلال القرن السابع عشر، والمتصفة إجمالا بالتطاحن والاضطرابات والثورات بين مختلف القوى والقبائل للسيطرة والوصول إلى الحكم بدون سند شرعي أو إجماع مغربي حولها. إلا أن التفاف كل المغاربة حول الأسرة العلوية، دفع بسلاطينها إلى اعتماد سياسة الوحدة والتوحيد منهجا لتحقيق الأمن والاستقرار واسترجاع تلك الهيبة التي كان المغرب يتمتع بها منذ القدم، فانصبت جهودهم على تسخير كل الجهود والإمكانيات، السياسية والعسكرية والاقتصادية لمتابعة المشروع العلوي لتوحيد البلاد وضمان الأمن والاستقرار للعباد.

وفي ظل تلك الأوضاع التي خلفتها التطاحنات والصراعات بين مختلف القوى السياسية التي كانت تتحين الفرص للتمرد، وسيرا على النهج الذي اعتمده مولاي امحمد ومولاي الرشيد، عمل السلطان مولاي إسماعيل؛ بعد أن عقدت له البيعة؛ بعد وفاة أخيه في حادثة الفرس بمراكش، على إيجاد حلول ناجعة مستقاة من الفكر العسكري الذي عرف لدى العثمانيين والأوربيين، لكن بطريقة وأسلوب مغربي متميز، وهو ما يحيل إلى كون السلطان مولاي إسماعيل كان مطلعا على ما يروج وما داخل الأوساط العسكرية المعروفة آنذاك والمتنافسة بينها للسيطرة على مناطق أخرى . بل كان مدركا عن وعي وإيمان بعقيدته العسكرية وبأن القوة العسكرية المبنية على أساس قبلي لا يمكنها أن تصمد أمام مغريات السلطة وترتيباتها، وهو ما يتضح من خلال رسالة بعث بها إلى امحمد بن عبد القادر الفاسي القصري جاء فيها :**"(...)وقد نظرنا في الجند الذي عليه مدار أساس الخلافة وبه قوامها فما وجدنا مدينة فيها عصبية، ولا قبيلة فيها حمية تطوق أعناقها وتتقلد هذا**

الربق(...)"([1])،لذلك التجأ إلى أسلوب جديد اعتبر الأول في تاريخ المغرب، ولم يسبقه أحد له، وهو تكوين جيش منظم، محترف لا يمت لأي قبيلة بصلة، يكون الولاء فيه مطلقا لقائده الأعلى، ومتمرسا على أساليب الحرب والقتال، وخاضعا لتكوين نظري وتطبيقي مهمين ومجهزا بأحدث الأسلحة من عدة وعتاد. ليصبح بالتالي القوة الضاربة والأداة الفعالة والقوة العتيدة التي سيعتمدها السلطان مولاي إسماعيل لتوطيد الحكم ودعم اقتصاد البلاد وتحرير ثغورها.

أصول جيش عبيد البخاري:

تحيل مختلف المصادر التاريخية التي عايشت المرحلة أن أصل هذه التركيبة العرقية تعود إلى أيام السلطان السعدي أحمد المنصور الذهبي، الذي جاء بهم من السودان خلال حملته على تلك المناطق، حيث وظفهم في شتى المجالات وبالخصوص في المجال العسكري، وتم تقييدهم في سجل خاص بهم. إلا أن ضعف السلطة المركزية بعد وفاة المنصور الذهبي وصراع أبنائه جعلهم يتفرقون بين مدن وحواضر المغرب.وتحيل بعض المصادر على أن اقتراح مشروع توظيف هؤلاء العبيد كجيش لمولاي إسماعيل جاء من قبل عمر بن قاسم المراكشي المعروف باسم عليليش، الذي كان والده يشغل منصبا عسكريا مهما في جيش المنصور الذهبي، حيث طرح عليه المشروع قائلا له بعد أن استفسره مولاي إسماعيل في الأمر:"**(...)نعم، كثير منهم ومن أولادهم وهم متفرقون بمراكش وأحوازها وبقبائل الدير، ولو أمرني مولانا بجمعهم لجمعتهم**(...)"([2]). فما كان من السلطان إلا أن كلفه بجمع ما تبقى منهم ومطالبة كل القبائل المغربية بتسليمهم وتسجيل أسماءهم في ديوان خاص بهم. وبالرغم من كون أن مسألة توظيف هؤلاء العبيد كجيش مغربي، وبدون سند قبلي، قد لاقت معارضة من قبل بعض الفقهاء، وطرحت إشكاليات فقهية معارضة وأخرى مؤيدة، إلا أن السلطان مولاي إسماعيل تمكن بقوته من التغلب على هذا المشكل، خصوصا أن رغبته الأكيدة في توحيد البلاد وضمان أمنها واستقرارها ووضع حد للأطماع التركية و الأوربية، كانت أقوى من أي عرقلة لمشروعة العسكري الجديد.

مكونات جيش البخاري:

عمل الكاتب أبو حفص عمر بن قاسم المراكشي عليليش على جمع ما تبقى من العبيد حيث"**أخذ يبحث عنهم بمراكش وينقر عن أنسابهم إلى أن جمع من بها منهم. ثم خرج إلى الدير وجمع من وجد به. ثم سار إلى قبائل الحوز فاستقصى من فيها حتى لم يترك بتلك القبائل كلها أسودا**"([3])،وقد تكون هذا الجيش من عناصر بقية أحفاد العبيد المسجلين في دفتر جيش أحمد المنصور السعدي، الذي كان بيد أحد أحفاد قادة جيش السلطان السعدي، وكان ذلك الكناش يضم أسماء العبيد من الذكور والإناث: فجمع في سنة واحدة منهم حوالي ثلاثة آلاف رأسا منهم المتزوج والأعزب،كما عمد السلطان إلى اعتماد سياسة الشراء والإكراه بأمر القواد في الأقاليم بجمع العبيد بشراء المملوكين وجمع الأحرار بدون مقابل في مناطق الغرب والريف ودكالة وغيرها من مناطق المغرب، كما أضيف إليهم الحراطين المجلوبين من النواحي وينحدرون من العبيد، بعد تقصي أخبارهم والبحث عن جذورهم.

محاور تجميع نواة جيش البخاري:

-<u>محور مراكش ونواحيها</u>:بقيادة أبو حفص عمر بن قاسم المراكشي، تمكن من جمع 3000 فردا

-<u>محور بلاد الهبط</u> : بقيادة ابا الحسين علي بن عبد الله الريفي، وصل عددهم 8000 فردا

-<u>محور قبائل الغرب وبني حسن</u>: بقيادة عبد الله محمد بن العياشي، عددهم 2000 عنصرا

-<u>محور قبائل تامسنا ودكالة</u>، وصل عددهم إلى 4000 عنصرا.

وقد تم تقسيم جيش البخاري إلى ثلاثة أقسام:

([1]) انظر :مجلة تطوان، عدد خاص بمولاي إسماعيل، 1962

([2])انظر :الناصري، الاستقصا،مطبعة دار الكتاب، الدار البيضاء، 1956، ج 7، ص 56

([3])انظر:نفسه،ج.7، ص.56

-عبيد خالصي الرقبة:وهم العبيد الذين وجدوا في دفتر عليليش، أي بقايا العهد السعدي، واشترتهم الدولة من أصحابهم.

-العبيدالأحرار:هم الذين حرروا وثم إدماجهم في الجندية إدراجا إجباريا، كما عرفوا بالحر الثاني

-العبيد الأحرار خالصي الحرية: وقد اختير هؤلاء للونهم، وكان عدد منهم من الأفارقة الذين يسكنون المغرب، ولا يكونون عصبية داخلية ولا يتميزون بنزعة إقليمية.

جيش البخاري : التنظيم والتكوين العسكريين للسلطان مولاي إسماعيل:

بعد أن نجح السلطان مولاي إسماعيل في جمع عدد كبير من العبيد وبلغ عددهم في البداية حوالي أربعة عشر ألفا وزعهم على مناطق مهمة خاصة بمشرع الرملة الذي كان يوجد على وادي تفلت في جنوب سيدي يحيى، وكذلك بقصبة إدخسان بالمنطقة الشمالية، وقد ارتفع هذا العدد بسبب السياسة التناسلية التي أمر بها السلطان للرفع من عناصرها؛و أضيف لهم عدد من الحراطين الذين جلبهم السلطان مولاي إسماعيل خلال حملته على بلاد شنكيط عام 1678، قدر عددهم بـ 2000 فردا، كما أن القوافل التجارية التي كانت تذهب إلى السودان عبر التواتوغينيا،تجلب معها العديد من السود، وقد وصل عدد عبيد البخاري في نهاية العقد الثالث من القرن الثامن عشر إلى مائة وخمسين ألف فرد، وقد خضع أفراد هذا الجيش الفتي إلى تنظيم محكم وتكوين مستمر يمكن أن نشبهه بأكاديمية عسكرية متخصصة، في إنتاج العسكر، وتربيتهم تربية عسكرية محضة تأهلهم للانخراط في سلك الجندية بصفة مباشرة.

ولقد عمل السلطان مولاي إسماعيل على الوقوف بنفسه على تكوين هذا الجيش الجديد حيث حرص على الاعتناء به وتنظيمه وفق إستراتيجية محكمة وإتباع خطط عسكرية دقيقة، ليتمكن الجندي من الانضباط والتأقلم مع أي وضعية أثناء الحرب والسلم.ويستشف من النصوص التاريخية أن عملية التكوين تنطلق بالأساس من خلال برنامج علمي يبدأ بشروط الانضمام إلى الأكاديمية الحربية الإسماعيلية إذا جاز لنا تسميتها بذلك، نظرا لتوفر شروط التكوين المستمر ويخضع كذلك لترتيبات لوجيستية تنطلق من اختيار مكان ومدة ومناهج وبرامج التكوين، كما يضع الأسس النظرية التي يجب تلقينها لأولئك الجنود، حتى يحقق السلطان مولاي إسماعيل الأهداف التي رسمها وينجز مشروعه الكبير والمتمثل في توحيد البلاد وضمان أمنها واستقرارها واسترجاع هيبتها بتحرير ثغورها المحتلة.وفيما يخص مسألة التنظيم، فإن شروط القبول بسلك الجندية؛ يتطلب من المرشح أن لا يقل عمره عن عشر سنوات، وأن يكون أسود اللون، والقبول مفتوح في وجه الذكور والإناث. بينما يخصص مكان التدريب فبالنسبة للذكور تقام في الحوانيت والملاعب أو المعسكرات، وبالنسبة للإناث في القصور السلطانية. وفيما يخص مدة التكوين والتدريب فتمتد ستة سنوات وتم تقسيمها إلى مرحلتين بالنسبة للذكور :

-فالمرحلة الأولى تمتد لمدة 3 سنوات،يحصل فيها الفرد عل الثقافة العامة، ومعلومات تعلق بالشؤون الحربية.

-المرحلة الثانية تمتد بدورها 3 سنوات، وتخص حياة الجندية.

أما مناهج التدريب والتكوين فيمكن اجمالها هي كذلك في مرحلتين أساسيتين:

-المرحلة الأولى من التدريب تقام بحوانيت البناء والنجارة والحدادة،وحرف أخرى وتقسم على الشكل التالي :

السنة الأولى:يتم فيها تعلم قيادة الدواب - السنة الثانية:التدرب على سوق البغال المحملة بالآجر والزليج والخشب - السنة الثالثة:التدرب على الجندية مع القيام بأعمال البناء بصنع ألواح الطابية (القالب أو التابوت).

أما المرحلة الثانية فبدورها تمتد 3 سنوات، وتخص حياة الجندية

وفي السنة الرابعة : يتم فيها توزيع الملابس والسلاح على المتدربين قصد التمرين على الفنون الحربية

وفي السنة الخامسة : تدفع لهم الخيول بدون سروج لجرها في الميدان والتدرب على ركوبها

وفي السنة السادسة والأخيرة : فيتم التدرب على ركوب الخيل بالسروج وتعلم فنون الحرب من كر

وفر، والتدرب على الرماية والطعن من فوق صهوات الخيل.لقد كان السلطان مولاي إسماعيل؛ حسب روايات المؤرخين؛ يسهر بنفسه على تكوين وتدريب جيش البخاري واستعراض المشاة والفرسان، بعد تكوينهم حتى يتسنى له معرفة قدراتهم القتالية، فيخضعهم لخططه العسكرية التي كانت تعتمد على إستراتيجية الهجوم والمناوشة، والمباغتة بواسطة فرق المشاة والفرسان، الذين كانوا يتقنون الحرب الهجومية بفعالية أكبر، حيث اتسم ذلك الجيش بحاسة حربية دقيقة ومهارة واحترافية في قيادة الهجمات ونصب الكمائن وإتقان مسألة الحصار وفكه، واستعمال مختلف الأسلحة الخفيفة والثقيلة من المجانيق والمهاريس والمدافع والكور واستخدام أحدث تقنيات وآلات الحصار.

ولم يقتصر التكوين والتدريب جيش البخاري على المجال التطبيقي فحسب، بل سهر السلطان مولاي إسماعيل على استكمال تكوين أفراد جيشه، تكوينا نظريا يتماشى مع ما يصبو إليه من شحذ وذلك من خلال تربية هؤلاء الجند على تربية نظرية ترتكز على مطالعة كتب التاريخ والقصص منها على وجه الخصوص : سيرة عنترة بن شداد وألف ليلة وليلة ، لاستلهام العبر من هذه القصص خاصة في ما فيها من خدع حربية وطرق الكر والفر وكيفية الهجوم، إذ درج السلطان على أن يوزع على كبار عسكره سير الأبطال، وأخبار المعارك، ويحضهم على مزاولة مطالعتها، ناظرا في ذلك أن يكون عسكره على معرفة متنوعة بمكائد الحروب، والكر والفر، وتدبير نزول الجيوش، والأخذ بالأحوط في ذلك، وكيفية الهجوم، وافتتاح المحاربة، وعقد الصلح، والمهادنة، وترتيب الشروط، وتعلم الإقدام والمخاطرة، وإدراك المراتب والمزايا.

وبعد تكوين وتدريب وتخرج مختلف المكونات وتقسيمها إلى فرق ومجموعات، وتحديد مهامها، عمد السلطان مولاي إسماعيل على إضفاء الصبغة الدينية للعلاقة بينه وبين جيشه الجديد، الذي يعتبر السلطان قائده الأعلى، وتلزمه الطاعة التامة له، بعد حفل أداء القسم على خدمة الإسلام والسلطان على صحيح البخاري حيث قال لهم السلطان مولاي إسماعيل: "(...)**أنا وأنتم عبيد لسنة رسول الله وشرعه المجموع في هذا الكتاب، فكل ما أمر به نفعله وكل ما نهى عنه نتركه وعليه نقاتل، فعاهدوه على ذلك**(...)"، ثم أمر بالاحتفاظ بتلك النسخة وأمرهم أن يحملوها حال ركوبهم ويقدموها أمام حروبهم([1]).كما كان السلطان مولاي إسماعيل يرمي بنهجه الجديد، إلى تأسيس جيش مغربي مستقل عن كل تجاذب سياسي، وقادر على أن يحقق الأهداف المسطرة، ويكون تحت سيطرته وينفذ أوامره ويضمن بالتالي أمن واستقرار البلاد، وقد تمكن بالفعل هذا السلطان من إنجاز مشروعه السياسي والاقتصادي والعسكري، فأصبحت المؤسسة العسكرية بفضل القيادة العامة للسلطان مولاي إسماعيل حاضرة في جميع ربوع المغرب بسبب التوزيع المتقن الذي اعتمده بجعل الجيش في يتدخل في كل ما من شأنه المساس بأمن واستقرار البلاد،وانتشار الحاميات العسكرية في مختلف المحاور والطرق الإستراتيجية والحيوية وبالجبال والسهول والوديان.وتعتبر الفرق المكونة لجيش عبيد البخاري من نخب الجيش المغربي نظرا للتكوين الصارم الذي خضعت له، والمراقبة المستمرة التي كان يقوم بها السلطان بنفسه لمختلف وحداته، حيث يكون العقاب شديدا خلال تقصير أحد القواد أو المسؤولين العسكريين عن أداء مهامه، لذلك كانت النتيجة الانضباط التام للقانون العسكري الذي سنه.

وبذلك استطاع السلطان مولاي إسماعيل أن يمسك بيده جميع السلط العسكرية، وأن يقبض بيد من حديد بهذا الجيش، نازعا منه الوسائل والمقومات التي يمكنه بها العبث باستقرار البلاد، وذات الوقت مانحا إياه كل الوسائل الضرورية ليكون أداة فعالة وقوة عسكرية لا تشكل خطر على الحكم ولا على أمن البلاد. وقد كانت كل فرقة توكل إليها مهمة محددة، فالرماة لهم وظيفتهم والفرسان لهم دورهم، وكل فرقة يترأسها باشا أو قائد، فمثلا الفرقة المكونة من خمسة آلاف فارس كان يقودها قائد يحمل اسم قايد راسو وقواد الفرق يطلق عليهم قواد روسهم. ولاكتساب التجربة والخبرة العسكرية لجأ السلطان

[1] انظر:الاستقصا، ج7، ص. 58

مولاي إسماعيل إلى تغيير القيادة العسكرية بين الفينة والأخرى واعتماد مبدأ التناوب بالنسبة لنخبة جيشه النظامي، حيث يقضي جزء منه فترة بالعاصمة مكناس، تم ينتقل إلى منطقة أخرى، ومما زاد في فعالية الجيش، إضافة إلى التكوين المستمر، تجهيزه بالعدة والعتاد المتطور آنذاك، فيتم تسليح الفرسان بالمكاحل ذات الثقالة والسيوف العريضة والحراب، وهي أسلحة كانت تستورد من أوربا، إضافة إلى الأسلحة التي تصنع محليا، في حين كان المشاة مزودين بالبنادق ذات المدى البعيد والأقواس والرماح القصيرة، كما وظفت المدفعية بشكل كبير أثناء المعارك والمواجهات، والتي كانت تحرم على القبائل امتلاكها، بل الأكثر من ذلك نزع منها جميع وسائل الاستقلال والدفاع من أسلحة وخيل، لتبقى مختلف المقومات العسكرية من اختصاص الجيش المغربي([1]).

و صفوة القول شكلت مسألة تأسيس جيش مغربي محترف، استثناء في تاريخ المغرب الحديث، بفضل السياسة العسكرية للسلطان المولى إسماعيل، مما مكن المغرب من تقلد مكانة متميزة ضمن الدول القوية وقتئذ، حيث استعادت الدولة هيبتها وانتشر الأمن والاستقرار، وواكب ذلك تحرير جل الشواطئ المغربية وحماية الطرق التجارية الصحراوية، مما انعكس إيجابا على الاقتصاد المغربي، وفسح المجال أمام السلطان مولاي إسماعيل لتحقيق المنجزات العمرانية والمعمارية، التي بقيت شاهدة على مكانة ذلك السلطان، و أعطى المثل الحي على الروح الوطنية والذود عن مقدسات المغرب .

ترجمة المؤلف:

هو أبو عبد الله محمد العربي بن أحمد الأندلسي ثم الفاسي ولد سنة 1042هـ/1632م([2])،وتتلمذ بفاس على يد كبارعلماء عصره بجامع القرويين،كعبد القادر الفاسي الفهري وأحمد المزوار و محمد بن سودة المري،وغيرهم وأصبح على شاكلة شيوخه من فحول العلماء مما أهله لتولي خطة القضاء والفتوى والخطابة والتدريس بجامع القرويين مع خطة النظارة على أحباس مدينة فاس،كما كان له إلمام بعدة علوم عقلية ونقلية كالتفسير و الحديث النبوي و الفقه والتصوف واللغة العربية والبيان([3])،ونجد من تلامذته عبد السلام بن الطيب القادري([4]) ومحمد بن أحمد المسناوي([5]).

وقد خلف انتاجا فكريا غزيرا اغلبه مخطوط ينتظر التحقيق وأذكر منه على سبيل الذكر لا الحصر :"النوازل"([6])،اضافة الى عدة رسائل منها :رسالة بعنوان: " إفشاء القواعد المذهبية و الأقوال المرضية في إبطال النحلة العليشية التي أشاعها الملحد في الأقطار المغربية" و يرجع تاريخها إلى سنة 1120هـ ـ 1708م وهي مخطوطة توجد نسخة منها بالخزانة العامة بالرباط تحت رقم د2/163.

وقد توفي بفاس سنة 1133هـ/1720م و فيها دفن بروضتهم خارج باب العجيسة بجانب فران الغرباء([7]).

---

[1])انظر:مقال" تنظيم جيش البخاري في عهد مولاي إسماعيل"،مجلة دعوة الحق(المغربية)،العدد203.

[2])انظر:-محمد القادري،التقاط الدررومستفاد المواعظ والعبر،دارالافاق،بيروت،1983،ص320.-احمد بن عجيبة،ازهار الستان في طبقات الاعيان،مخطوط توجد نسخة منه بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم 3347ز،ص90.-المفضل الكنوني،محمد بن زاكور الفاسي،مطبعة الاندلس،قنيطرة،1998،ص126.

[3])انظر:عبد السلام بن سودة،قضاة فاس من دولة الاشراف الادارسة الى دولة الشرفاء العلويين،تحقيق عبد العزيز تيلاني،مطبعة انفوبرانت،فاس،2009،ص108-109.-محمد القادري،التقاط الدرر،م.س،ص239.

[4])انظر ترجمته في تقاييده التي تشرفت بتحقيقها ضمن سلسلة تحقيقات،نشر دار الامان،الرباط،2015.

[5])انظر:تقاييد محمد المسناوي،تحقيق خالد صقلي،نشر دار الامان،الرباط،2012

[6]) جمعها تلميذه أحمد بن محمد الخياط الدكالي وطبعت في المطبعة الحجرية بفاس عام 1344 هـ/ 1925م.

[7])نجد من مصادر ومراجع ترجمته ما يلي:ـ احمد الغساني،تأليف في التعريف لعبد السلام القادري يوجد مصورا على ميكروفيلم بخزانة كلية الآداب في الرباط تحت رقم 252 مكل، ص4.ـ محمد القادري،نشر المثاني،ج3،م.س، ،ص247.-امحمد الفاسي، المورد الهني بأخبار مولاي عبد السلام الشريف القادري،تحقيق خالد صقلي،نشر دار الامان،الرباط،2008ص13-14.-محمد الكتاني،سلوة الانفاس،م.س،ج3،ص169.-محمد مخلوف، شجرة النور الزكية،دار الكتاب العربي،بيروت،طبعة بدون تاريخ،ص332.-مؤلف مجهول،تقاييدعلمية،مخطوط بالخزانة العامة في الرباط تحت رقم ج37،ص162.- عبد الرحمان ابن زيدان:-إتحاف أعلام الناس،م.س،ج1،ص337.-المنزع اللطيف في التلميح بمفاخر مولاي اسماعيل الشريف،مخطوط

تعريف الوثيقة:

و قفت على رسالة مخطوطة للعلامة القاضي العربي بردلة بعث بها إلى السلطان المولى إسماعيل في خزانة خاصة،وتقع في 9 ورقات، وكتبت بخط مغربي عتيق باللون الاسود القاتم وتتخلله حمرة في بعض الكلمات قصد ابرازها ولفت الانتباه اليها،ومقياسها هو:22×18، ومسطرتها 15،وكتبت بتاريخ آخر شهر ربيع الأول عام 1120هـوبجانب الرسالة ورد نص موقف العلامة عبد السلام بن حمدون جسوس([1])من هذه المسألة كتبه في السجن في قضية طويلة بتاريخ 23 ربيع الثاني عام1121 هـ ([2]).

نص الوثيقة:

[ص1]الحمد لله وحده و صلى الله على سيدنا ومولانا محمد و آله.هذا نص كتاب كتب به علامة العصر سيدنا العربي بردلة للسلطان الجليل المؤيد مولانا إسماعيل أيده الله وسدده في نازلة الحراطين الشهير أمرها الشائع عند الناس ذكراها العلاء السني مقامه والكمال الأوحد شأوا المتلألئة ،كوكب لاح من فلك الخلافة فأضاء الكون أنواره وبدر سنا أظهرته المنة الأزلية في أعلى مراقي الإمامية فعم مدده وأسراره ملك أعاظيم الأمراء في العالم ملاذ عظماء الأئمة من عرب و عجم رافع ألوية الشرائع النبوية ناشر رايات العلوم الدينية طلعة جلالته لمعت من الضئضي النبوي ونبعة أصالة مجتباة من شامخ البيت العلوي الهاشمي المولوي مظهر كلمة الله العليا غياث الحق و الدين و الدنيا مولانا الإمام المؤيد الهمام أمير المؤمنين المجاهد في سبيل رب العالمين أبو المعالي مولانا إسماعيل بن موالينا الكبراء العظماء الأنام و مستمسك الخاص و العام أيد الله نصره وأعلى أمره و ذكره أحيى المقام تحية تلبك من المسك بالعبير و تجل عن وصف اللسان وعن أن تشاكل بالنظير .

وبعد لثم العبد الأرض بين يدي البساط أنهي للمقام الأعلى أنه لما كان من الواجبات المؤكد أمرها والتكاليف المعظم في الشرع خطرها وقدرها النصيحة لله ولكتابه و لرسوله و لأئمة المسلمين وعامتهم. أخرج مسلم و النسائي أن النبي صلى الله عليه و سلم **قال:"الدين النصيحة قلنا لمن يا رسول الله ؟قال: لله و لكتابه و لرسوله و لأئمة المسلمين و عامتهم". وأخرج البخاري ومسلم عن جرير بن عبد الله البجلي قال:بايعت رسول الله صلى الله عليه وسلم على الإسلام فشرط علي والنصح لكل مسلم فبايعته على ذلك.وأخرج الإمام أحمد مرفوعا قال الله عز وجل:﴿أحب ما تعبد لي عبدي به النصح لي﴾**.وأخرج الطبراني عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال:**"من لا يهتم بأمور المسلمين فليس منهم و من لا يصبح و يمسي ناصحا لله و رسوله و لكتابه و لإمامه و لعامة المسلمين فليس منهم"**.

وأخرج مسلم عنه صلى الله عليه و سلم أنه قال:**"من غشنا فليس منا"**[ص2]وأخرج الطبراني مرفوعا عن النبي صلى الله عليه و سلم أنه قال**"من غش المسلمين فليس منهم"**قال جلال الدين السيوطي([3]) في الديباج([4])في الكلام على الحديث الأول من هذه

توجد نسخة منه بالخزانة الحسنية بالرباط تحت رقم3982،ص219.

[1])هو علامة ومحدث وصوفي،كان له المام بمختلف العلوم العقلية والنقلية،ومن شيوخه ابي محمد عبد القادر الفاسي،وابي عبد الله ميارة وابي علي الحسن اليوسي،وابي سالم العياشي ،وخلف تلاميذ اصبحوا على شاكلته في العلم والعمل،كما كان له انتاج فكري غزير ،وتوفي شهيدا في سجن فاس 25ربيع الاول عام1121هـ/1709م،ودفن بروضتهم داخل باب الفتوح.وانظر:محمدالقادري،الاكليل والتاج،م.س،ص429-430.

[2]) حول محنة العلامة جسوسانظر-المهناوي،م.س،ص 4.-احمد بن خالد الناصري، الاستقصالاخبار دول المغرب الاقصى،دار الكتاب،البيضاء،1955،ج7،ص94-95.

[3])هو الإمام المصري جلال الدين عبد الرحمنالسيوطي،ولد مستهلّ رجب سنة849هـ، نشأ في القاهرة يتيماً ومات والده وعمره خمس سنوات، ولما بلغ أربعين سنة اعتزل الناس، وخلا بنفسه في روضة المقياس، على النيل، منزوياً عن أصحابه جميعاً، كأنه لا يعرف أحداً منهم، فألف أكثر كتبه أخذ عن جماعة من علماء وقته ودرس الفلسفة والرياضيات فصار أوسع نظراً وأطول باعاً من مشاهير فضلاء عصره وكتب في كلّ موضوع مصنفاً بأقواله وأدلته النقلية والقياسية. وأوّل شيء ألفه كان شرح الاستعاذة والبسملة ولازم الشيخ البلقيني وقرأ عليه في تدريس والده وسمع على غيره وأجازه بالتدريس والإفتاء كما لزم بعدَه الشرف المناوي والتقيّ الشمنّي وشهد له بالتقدم في العلوم والتبحُّر فيها.وسافر إلى بلاد الشام والحجاز واليمن والهند والمغرب والتكرور،خلف رحمه الله حوالي600 مؤلف بين المخطوط والضائع والمطبوع،وتوفي في19 جمادى الأولى911هـ.

[4]) تعددت تحقيقاته وطبعاته ومنها طبعة دار الكتب العلمية،بيروت،2005.

الأحاديث، قال الخطابي([1])هي أن النصيحة كلمة جامعة معناها حيازة الحظ للمنصوح له،ثم قال: بعد و معنى الحديث:عماد الدين و قوامه النصيحة كقوله: الحج عرفة أي عماده و معظمه،ثم قال في معنى النصيحة لله،قالالعلماء:النصيحة لله ومعناه الإيمان به ووصفه بما يجب له وتنزيهه عما لا يليق به وإتيان طاعته وترك معاصيه وموالاة من أطاعه ومعاداة من عصاه وجهاد من كفر به والاعتراف بنعمه والشكر عليه والإخلاص في جميع الأمور والدعاء إلى جميع الأوصاف المذكورة التلطف في جمع الناس عليه قال الخطابي:وحقيقة هذه الأوصاف راجعة إلى العبد في نصيحة نفسه فإن الله غني عن نصح الناصح والنصيحة لكتابه معناها:الإيمان بأن كلامه تعالى و تنزيله لا يشبهه شيء من كلام الخلق ولا يقدر على مثله أحد ثم تعظيمه و تلاوته و تحسينها و الخشوع عندها وإقامة حروفه في التلاوة و الذب عنه لتأويل المحرفين وطعن الطاعنين و التصديق بما فيه والوقوف مع أحكامه و تفهم علومه والاعتبار بمواعظه والتفكير في عجائبه والعمل بمحكمه والتسليم لمتشابهه والبحث عن عمومه وخصوصه و ناسخه و منسوخه ونشر علومه والدعاء إليه وإلى ما ذكرنا من نصيحته والنصيحة لرسوله صلى الله عليه و سلم تصديقه في الرسالة والإيمان بجميع ما جاء به و طاعته في أمره و نهيه و نصرته حيا وميتا وموالاة من والاه ومعاداة من عاداه وإعظام حقه و توقيره وإحياء طريقته في سنته ونفي التهمة عنها واستثارة علومها والتفقه في معانيها والدعاء إليها والتلطف في تعلمها وتعليمها وإعظامها وإجلالها والتأدب عند قراءتها والإمساك عن الكلام فيها بغير علم وإجلال أهلها لانتسابهم إليها والتخلق بأخلاقه و التأدب بآدابه و محبة أهل بيته و أصحابه ومجانبة من ابتدع في سنته أو تعرض لأحد من أصحابه و نحو ذلك والنصيحة لأئمة المسلمين معاونتهم على[ص3]الحق وطاعتهم فيه وأمرهم به وتذكيرهم برفق و لطف

[1])هو العلامة أبو سليمان أحمد بن محمد له كتاب شرح سنن أبي داوود يسمى"بمعالمالسنن".وطبع في 8ج بدار المعرفة، بيروت، عام 1980

وإعلامهم بما غفلوا من حقوق المسلمين وترك الخروج عليه و تآلف قلوب الناس لطاعتهم والصلاة خلفهم والجهاد معهم وأداء الصدقات لهم وأن لا يطروا بالثناء الكاذب وأن يدعوا بالصلاح.

هذا على أن المراد بالأمة والولاة وقيل هم العلماء فنصيحتهم قبول ما رووه وتقليدهم في الأحكام وإحسان الظن بهم والنصيحة للعامة إرسالهم لمصالحتهم في آخرتهم ودنياهم و كف الأذى عنهم وتعليمهم ما جهلوه وستر عوراتهم وسد خلاتهم وأمرهم بالمعروف ونهيهم عن المنكر برفق والشفقة عليهم وتوقير كبيرهم ورحمة صغيرهم و الذب عن أموالهم و أعراضهم و أن يحب لهم ما يحب لنفسه ويكره لهم ما يكره لنفسه وحثهم على التخلق بجميع ما ذكر من أنواع النصيحة،ومن ذاكر النصائح وأهمها و أكملها مصلحة وحكمة من أعمها النصح لأئمة المسلمين المقلدين بكافة أمور الأمة و أعباء الدين وذكر الأحكام الشرعية لهم و بيانها.وقد أفصحت النصوص من الكتاب والسنة بوجوب بيان الأحكام و بالوعيد على كتمها على الأنام. قال الله تعالى:{**وإذ أخذ ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبينه للناس و لا تكتموه**}([2])الآية،وقال من جل من قائل:{**إن الذين يكتمون ما أنزلنا من البينات و الهدى من بعد ما بيناه للناس في الكتاب أولئك يلعنهم الله و يلعنهم اللاعنون**}([3])،وقال صلى الله عليه و سلم:"**من سئل عن علمه فكتمه ألجم بلجام من نار يوم القيامة**"([4])،وغير ما آية و حديث.ولو هذا في كتم الأحكام و الإغماض عن بيانها أما ليها و تبديلها بنحو الاستحلال محرم ولو صغيرة علم من دين الإسلام تحريمه بالضرورة كنكاح ذوات المحارم أو الزنا أو الشرب أو أكل الميتة أو لحم الخنزير من غير ضرورة فهو إلحاد و كفر و شهير جلي ماهو من شيم مولانا أدام الله تأييده وأولى النصر و الفتح جنوده.

[2]) الآية 187من سورة آل عمران.
[3]) الآية 159من سورة البقرة.
[4])ورد هذا الحديث عند :إسماعيل ابن كثير القرشي ،تفسير القرآن العظيم،طبع دار الفكر، بيروت، 1969،ج1،ص436.- سليمان الطبري،المعجم الصغير،طبع دار النصر،القاهرة والمكتبة السلفية في المدينة، ط2،1968،ج1،ص160-162.

و ما جلبت عليه طبيعته العلوية من النصرة لدين الله تعالى و رعاية ودائعه و حفظ ما أودع سبحانه من شرائعه و الذب عن الحنفية السمحاء و حياطتها و قمع من يلحظها بعين الاعتداء وإعظام أمرها وصيانتها وماهو عليه من الشغف بمحبة العلم و التلهف على بثه في الآفاق ونشره والتقدير لقدر العلماء حملة الشرع والتبجيل و مجاملتهم[ص4] بما لايعرف لأحد غيره من الصنع الجميل والمبالغة في التنفير عن البدع المحدثات وكبت المعتدين الملحدين ذوي الجرأة والترهات وخصوصا ما يرجع إلى الإبضاع فهو أيده الله يحمد نفسه في ذالك بالبحث عن متعلقاتها والاستقراء ويبالغ في الاحتياط فيها و التخلص من متشابها بالتتبع للأحكام الشرعية و الاستقصاء و إنها لجديرة لذلك.

وكيف لا وحفظ الأنساب احد الكليات الخمس التي تواطأت عليها جميع الأنبياء والرسل وأطبقت ولم تستبح في شريعة من شرائع الأمم([1])،والنصوص في ذلك شهيرة لحجة الإسلام الغزالي. وقد قال صلى الله عليه و سلم في خطبته المشهورة بحجة الوداع:**"فإن دماءكم و أموالكم و أعراضكم عليكم حرام"**([2])الحديث،قالالعلماء:وحفظ الأنساب داخل تحت حفظ الأعراض على أن الأحاديث الصحيحة جاءت مصرحة بذلك قال القرافي([3])وغيره: فما أباح الله العرض بالقذف والسب قط ولا العقول بإباحة المفسدات لها قط ولا النفوس و الأعضاء بإباحة القتل و القطع بغير حق ولا الأديان الكفر و انتهاك حرم حرمة المحرمات قط وأمير المؤمنين عمت بركته و أصح قصده على ما يقتضيه جميع الظن به وما تفيضه كمالات بيت النبوءة من شأفة به و بلغنا عنه غير مرة أن اهتمامه بما أشار به من جمع الحراطين وكمال رغبته في ذلك ليس غلا لما اقتضاه رأيه الصائب وعزماته النافذة من تكثير الجيوش التي بها قوام الدينوحفظ بيضة الإسلام والمسلمين لا انه أثارته وحشاه شهوة دنيوية بذلك،ومن سرى إلى وهمه أن المقتضى ذلك،ولم يحم حول حكم مقترحاته اخذ يعاني جمعها على وجه مضاد للحق،معاند لقواعد الشرع،مناف لقصده دام علاه،كيف و لم يزل يفصح و يصرح علنا بان هذا الأمر لا يرتكب فيه إلا أكمل وجه من وجوه الصحة الشرعية،ولا يعاني إلا متحقق الأركان مستوفي الشروط مرتفعة عنه الموانع على ان الحصول ما ذكر من غرضه و قصده من تكثير الجيوش لا يخفى انه يتوقف على استرقاق بل هو طوع اليد بدونه،وحيث تحقق هذا كله ولم يخفى تعين على من له ملابسة بالعلم إنهاء هذا الخطب النازل الوقتي الذي هو المجاهدة باستعباد الأحرار و استرقاقهم بدون وجه[ص5]شرعي وتقرير هيئته الواقعة،و كشف الوجه الذي ينتحل عليه و ما يرتكب في ذلك من المحظورات الموبقات وبيان حكمه.

إذ مثل هذا مما لا يسع التغافل عنه و التساهل في أمره،كيف وهو مما توعد عليه من الغش و كتم الأحكام وإذا كان كذلك فأبث لمولانا نفدت أوامره و سطت بأهل الزيغ و العتو عزماته وبوادره،انه غير خفي إن هذه الأرقاق من الظاهر الشهير الذي ستره به،إن المطالبين به إلا في مدينة فاس هم أناس أحرار كغيرهم من سائر أحرار المسلمين حريتهم معلومة لا اشتباه فيها بوجه و كل ما يقع فيهم من الإقرار بأنهم أرقاء لمعين أو لغير معين أو يقع من غيرهم من الشهادة عليهم برقية على أي وجه كانت فإن ذلك كله عن ضغط و إكراه مشاهد معاين بحيث لا ارتياب فيه ولا يختلج في ذهن افتقاره إلى إثبات كيف،وكيف وقع الإعلان بالتصريح للجم الغفير والملأ الكثير من أهل العلم و غيرهم مشافهة من المنتصب لهذا الأمر والمعين له بان هدا الاسترقاق إن لم يقع الانقياد له والإذعان انتقم من الكافة و نكل بهم و عوقبوا العقاب الشديد بان ينزل بهم ما لا يستطاع من الأمور الفظيعة من قتل نفوس و هتك حريم وإلزام مالا يطاق من قناطير الأموال وحيث كان كذلك فكيف يعول على هذا الإقرار و هذه الشهادة ؟و كيف يعتد بذلك و يسترقون به و نصوص الأئمة

---

[1])انظر: إدريس العلوي،الدرر البهية،المطبعة الحجرية الفاسية،1896،ج1،ص5

[2])انظر نص الخطبة عند عمرو بن بحر الجاحظ"البيانوالتبيين"،طبع دار الكتاب اللبناني، بيروت بدون تاريخ،ج2،ص27.

[3])له كتاب تنقيح الفصول في الأصول،طبع في المطبعة الخيرية بالقاهرة عام 1306هـ

طافحة بان كل ما كان من إقرار من شهادة عن ضغط و إكراه فهو لغو لا اعتداء به،قال ابن يونس قال مالك:لا يلزم المرء المكره ما أكره عليه من طلاق أو نكاح أو عتق،وغيره ابن عرفة([1]):"**طلاق المكره وسائر أفعاله لغو**"،ابن الحاجب([2]):"**لا اثر لطلاق الإكراه كنكاحه وعتقه وغيره والإقرار به واليمين هذا**".وقد صرحوا بان الإقرار لمن يتمم بان الإقرار له إنما وقع عن خوف و خشية لغو غير عامل،ففي الكافي لابن عبد البر: إقرار غير المحجور جائز لا يلحقه فيه تهمة ولا يظن فيه توليح ولا يحتاج كمعاينة قبض إلا أن يكون المقر له ممن بالقهر و التعدي بل هؤلاء المطالبون بالاسترقاق الآن حيث كانت حريتهم معلومة بإقرارهم بالرق،ولو كان عن طوع و جواز ومع انتفاء ما ذكر من التهمة فهو لغو لا يسلمون شرعا للرقية بهذا القرار[ص6]ولا ندعهم و إياها ولا يلزمون به لأن حريتهم حق من حقوق الله تعالى فليس لهم إرقاق أنفسهم.قال ابن سحنون:"**وأجمعنا في امرأة معروفة الأصل بالحرية و أبوها حران إن إقرارها بالرق باطل**".قال محمد ابن عبد الحكم وإن كان واحد فمن أقر بالرق معروف الأصل بالحرية لم يحرز إقراره و ليس للحر إرقاق نفسه،والبينة أولى في هذا من الإقرار فأنى يسع أحد العدول عما تقتضيه هذه القواعد أم كيف تتنكب هذه النصوص الصريحة و تبارز و تصادم.

ويسمى ما ينتحل بتمويهات و تلبيسات من الصور الفظيعة التي لا حقائق لها ولا وجه استقامة يحوم حولها،ولا شيء منها ولا من متعلقاتها يجار على قاعدة من قواعد الشرع كما لا يخفى على من له أدنى ملابسة بالأحكام الشرعية ويدعى إرقاقا و تابيعا تستباح به الإيضاح.وهل هذا الألي في الأحكام وتغيير و تبديل وتحريف وإلحاد فهو كفر لمتجشم ارتكابه كما أفصح بذلك نص الأشاعرة المتقدم نقله و غيره.وقد جمعت هذه الوصمة الشنعاء مفاسد معضلات،وتألفت صورتها البشعة من فظائع موبقات منها شهادة الزور والحمل عليها وقد بين النبي صلى الله عليه و سلم أنها تعدل الإشراك،روى أبو داوود و اللفظ له والترمذي وابن ماجة عن خريم بن فاتك رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه و سلم:(صلاة الصبح)فلما انصرف قام قائما فقال:"**عدلت شهادة الزور الإشراك بالله ثلاث مرات**".ثم قرأ:"**فاجتنبوا الرجس من الأوثان و اجتنبوا قول الزور حنفاء لله غير مشركين به**"([3]).وروى الإمام أحمد عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:"**سمعت رسول الله صلى الله عليه و سلم يقول:"من شهد على مسلم شهادة ليس لها فليتبوأ مقعده من النار**".ومنها الإكراه على الإقرار بالرق و الاستعباد به و المستعبد الحر هو أحد الثلاثة الذين لا يقبل الله منهم صلاة،أخرج أبو داوود وابن ماجة من طريق عبد الرحمان بن زياد بن أنعم عن عمران الغافري عن عبد الله بن عمر رضي عنهما أن رسول الله صلى الله عليه و سلم قال:"**ثلاثة لا يقبل الله منهم صلاة:من تقدم قوما وهم له كارهون،ورجل أتى الصلاة دبارا،والدبار أن يأتيها بعد أن تفوته،ورجل اعتبد محررا وهو أيضا أحد الثلاثة الذين قال الله تعالى فيهم أنه خصمهم**"[ص7]أخرج البخاري وابن ماجة و غيرهما عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم:" **قال الله تعالى:ثلاثة أنا خصمهم يوم القيامة ومن كنت خصمه خصمته،رجل أعطى بـــي ثم غدر،ورجل باع حرا وأكل ثمنه،ورجل استأجر حرا فاستوفى ولم يوفه أجره**"ومنها الإكراه على الحكم والفتوى بصريح ماهو غير حق من الضلال والباطل المرتكب فيه تضييع فرائض الله والمخالفة لسنة رسوله وتحليل ما حرم الله والوعيد في هذا عظيم.

قال الشيخ أبو طالب المكي([4]) رضي الله عنه في القوت([5])وروينا عن ابن عباس عن النبي صلى الله

[1]) محمد ابن عرفة الدسوقي له حاشية على الشرح الكبير لأبي البركات أحمد الدر دير طبع في دار الفكر بدون تاريخ.

[2]) هو عثمان ابن الحاجب توفي سنة 646هـو له المختصر في الفقه وشرحه الشيخ خليل المتوفى سنة 776هـ.

[3])الاية30 من سورة الحج

[4]) هو الإمام الزاهد العارف، شيخ الصوفية أبو طالب محمد بن علي بن عطية الحارثي، المكي المنشأ، العجمي الأصل.توفي سنة386هـ/96-997

[5]) هو كتاب"قوت القلوب في معاملة المحبوب ووصف طريق المريد إلى مقام التوحيد"،تعددت طبعاته منها طبعة مطبعة

عليه وسلم أنه قال:"إن لله عز وجل ثلاث أملاك ملك على ظهر بيت الله الحرام.وملك على مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم .وملك على ظهر البيت المقدس ينادون كل يوم.يقول الملك الذي على ظهر(مسجد)([1])رسول الله:منخالف سنة رسول الله لم تنله شفاعة رسول الله صلى الله عليه و سلم ويـقول الملك الذي على ظهر بيت المقدس من أحل حراما لم يقبل منه صرف ولا عدل"،ومنها أيضا أنها تفضي إلى إبطال كل عتق وتحرير تقدم لأنهم يجعلون في هذه الربقة ويدخلون فيها كل من لم يتقدم الرق له أو لأحد أسلافه،فلا عتق عندهم يعتد به،وهذا فتح لباب لا يستطاع النطق بمن يتناوله ويشمله من هذه الأمة من سلفها الصالح فمن بعده من القراء والعلماء وغيرهم ومنها أيضا ما تحقق الآن وشوهد بسبب هذا الواقع من سد باب العتق و تقرب الناس به،إذ لم يبق الآن وثوق باستمرار من يعتق على فك رقبته،ولحاقه بسائر المسلمين،ومعلوم تشوف الشارع للعتق وحظه عليه،والوعد عليه بجزيل الثواب فلينظر ما أفضت إليه هذه البدعة التي لم تقع في غير هذا القطر المغربي من سائر الأقطار ولم يبتل بها أهل عصر مما سلف من الأعصار أيسع نفسا زكية أن تنهض لحسمها وسد الطرق دونها فيبتهل إلى الله تعالى سبحانه في أن يدلي أمير المؤمنين كشف بلواها ورفع شكواها.فقد ضاقت نفوس الخاصة والعامة بها درعا وما استطاعوا لها نظرا ولا سمعا لجمعها بين المصيبة في الدين والدنيا[ص8]فلمثلها يود المؤمن أن لا يكون موجودا في الأحياء أرفض للشريعة ونبذ لما وراء الظهر ونسبة صورة شنيعة لها تبقى سبة وضحكة أمد الظهر معاذ الله أن يقع هذا وأمير المؤمنين موجود والعلماء والعلم والحمد لله حراس على دين قعود فإن ابتدر للفكر أن يقول:لم تأخر منكم المقال إلى الآن؟ .

وقد تقدمت أمثال له وعاينتموها فما وقع منكم بسط مثل هذا الكلام فيها وإلقاؤه،بل بسطتم اليد إلى الكتاب على موجبات ذلك،فجوابه أن المطالبين بالاسترقاق في تلك الأمثال هم في أمكنة بعيدة عنا لا نعرف أنسابهم ولا أعيانهم بل ولا أسماءهم فكيف بحريتهم ورقيتهم وما وقع من الكتاب على ذلك فهو مخاطبة بثبوت تلك الموجبات بعد الرفع على خطوط قضاتها أو جواب بالصحة والجواز على سؤال ليس فيه ما ينافيها،فتلك الموجبات العمدة فيها على شهود بلادها وعدولها وقضاتها فهم المتقلدون من ذلك ما تقلدوه.أما هؤلاء المطالبون بالاسترقاق الذين الكلام فيهم الآن فكلهم لم يزالوا منذ النشأة معنا ببلد واحد فنحن نعرفهم ونعرف حريتهم ولا يخفى علينا أمرهم،وقد دعينا الآن وألجئنا لنقيد ماهو مر من عندنا وبالجملة فالخطب في هذه المسألة عظيم فلكم تجاذبته حقوق لمولانا سبحانه ولعباده فليجهد ذو البصيرة جهده فيما ينجيه ويخلصه،عصمنا الله من الزلل ووفقنا لصالح القول والعمل،هذا ما أدى به بعض الواجب من النصيحة و نضرع لمولانا سبحانه أن يعامل بالعفو عما بقي في الذمة مما يتعلق بهذا وغيره من التقصير،وأحيي الحضرة العلية تحية مباركة وفي آخر يوم من شهر ربيع الأول عام 1120هـ عبيد الله تعالى وأسير ذنبه المرتجى عفوه وغفرانه العربي بن أحمد بردلة كان الله له .انتهى من خطه بواسطة الشيخ التماق رحم الله الجميع بمنه. آمين انتهى.

ومن خطه أيضا ما نصه:الحمد لله يشهد الواضع اسمه عقبه على نفسه ويشهد الله سبحانه و ملائكته وجميع خلقه أني ما امتنعت من الموافقة على تمليك ملك إلا أني لم أجد في الشرع وجها له ولا مسلكا ولا رخصة وإني وافقت عليه طوعا أو كرها فقد خفت الله ورسوله والشرع وخفت من الخلود في جهنم بسببه،[ص9]وأيضا فإني نظرت في أخبار الأئمة المتقدمين حين أكرهوا على ما لم يظهر لهم وجهه في الشرع ,ما آثروا أموالهم ولا أبدانهم على دينهم خوفا منهم على تغيير الشرع واغترار الخلق بهم. ومن ظن في غير ذلك أو افترى على مالم أقله ومالم أفعله فالله الموعد بيني و بينه.وحسبنا الله ونعم الوكيل والسلام،وكتب عبد السلام بن حمدون جسوس غفر الله ذنبه وستر عيبه انتهى من خطه كتبه يوم الثلاثاء صبحا 23ربيع الثاني عام 1121 في السجن،انتهى

الحلبي،القاهرة،1961.وانظر:اقتفاء الأثر،لأبي سالم العياشي،مطبعة النجاح الجديدة البيضاء،1996،ص196،التعليق 96

[1])سقط من الاصل

كذلك بخط التماق .وتوفي رحمه الله أي جسوس المذكور شهيدا مخنقا ليلة الخميس 25 من الشهر والعام أعلاه([1]).



[1])انظر:-محمد القادري،نشر المثاني،م.س،ج 3،ص205-208.-محمد الكتاني،سلوةالأنفاس،م.س ،ج 2،ص 14- 15.



رموز مقدسة عالمية قديمة



د.عادل نجيم
أستاذ باحث في التاريخ
بكلية الآداب بصفاقس
جمهورية تونس

البشرية بصدد البحث حاليا و أكثر من أي وقت مضى عما يمكن أن يجمعها أو يميز بعضها عن الآخر و ذلك بسبب التقارب اللامسبوق التي تمثل عبارة العولمة ترجمة له. مع العلم أن مسألة اكتساب أسباب التميز أو التفوق رهان حضاري هام و شرعي وهو ذو تبعات عملية هامة فمن يمتلك التفوق يكون مؤهلا أكثر من غيره ليلعب دور رياديا و مهيمنا و بالتالي يتحول إلى مرجع يحتكم له الجميع. معضلة الأسبقية الحضارية هذه لازمت البشرية و كان للعلوم المختلفة فيها رأي.

نحن نشهد اليوم تقدما غير مسبوق في أوجه عديدة من حياتنا مقارنة بما عاشته البشرية في عشريات قليلة من السنوات الماضية بشكل يطرح تساؤلا هاما يكاد يكون وجوديا وهو كيف يمكن أن تكون علاقتنا بالماضي. باختصار شديد هل نتجاوز الماضي و نستصغره أم هل على العكس نتعامل معه بوقار و نحاول الاستفادة منه. في هذا الخيار المفصلي أنا من أنصار الجواب الثاني و سأقدم مبررات ملموسة لموقفي.

أولا من الملاحظ أن الطفرة التكنولوجية و القيمية التي نشهدها اليوم لم تؤد إلى قطيعة مع الماضي بل بالعكس خلقت عقدة حضارية تجاهه نحن أحوج ما نكون لتبصرها و السعي لتجاوزها. من ناحية أخرى و بشكل عملي أكثر يمكن التصريح بكل بساطة أن الماضي يمثل مادة هامة جدا لضمان تقدمنا و ليس من المبالغة القول أنها حيوية لتغذية كل ثقافة تريد أن تضمن أسباب نجاحها و حتى ديمومتها فالماضي يمكن أن يكون مادة للإعتزاز و مخزونا ثريا للإبتكار و خاصة مصدرا لإستقاء الدروس المفيدة و المريرة في آن واحد و ليس من الغرابة أن العناية بالمضي في تزايد مطرد و على الوجه الأخص من طرف الدول العظمى التي تتنازع ريادة العالم.

من الهام كذلك التوضيح أنه ليس كل الماضي مفهوما بسهولة و في متناول الجميع فهو في جزء غير يسير منه في شكل رموز عاد ة ما تكون مبهمة لدرجة كبيرة و تستعصي غالبا على الفهم المباشر و تحتاج بالتالي إفتاء الباحثين لتصير مقروءة. من هذا المنطلق إرتأيت أن أتناول في مقالي الحديث عن جملة من الرموز التي تتميز باستمراريتها على مر الأزمنة. أتصور بكل تواضع أن هذه الأشكال رغم بساطتها الظاهرة هي في الواقع بمثابة صندوق يلخص الذاكرة البشرية جمعاء بالتالي فان التوصل لتفكيكها بشكل صحيح يمكن أن يعود علينا بالفائدة القصوى.

المتأمل لمجمل ثقافات و لغات العالم القديم و الحالي يكتشف أن هذه التعددية ليست إلا ظاهرية و سطحية و أن أسبقية ثقافة عن الأخرى أو لغة قوم عن غيرها مسألة كفيلة بالتمحيص و ربما حتى المراجعة العميقة و لما لا التجاوز.

هذه الرؤية الأصيلة و المبتكرة هي الآن في شكل مسودة تدعو المتحمسين للمعرفة للتبني المادي و الأدبي لتتحول إلى

مشروع نشر أو شكلا آخر من أشكال التوظيف و التفعيل. هذه المقاربة ترى أن تاريخ البشرية وحضارتها يكشف وحدة كل التعبيرات الثقافية سواء منها الحضارات الغابرة أوالحالية و كذلك كل اللغات سواء تعلق الأمر باللغات القديمة أو اللغات الحديثة. الملاحظ أن ماهو حالي من ثقافة و لغة هو نتاج لما هو قديم و تواصل طريف له وهو إما مغلف أومهذب بشكل كبير مما يجعل التفطن لدلالته أمرا ليس بالهين.

بالطبع هذه الملاحظات الأولية تتطلب عددا كبيرا جدا من الشواهد و التعليلات يتجاوز بكثير مساحة هذه الورقة. لذلك سيكون الغاية هنا القيام بإثارة بعض الشواهد الأكثر دلالة حول هذه المسألة الطريفة من البحث المعرفي.

في البداية أشير إلى أن هذا الموضوع تناوله بعض الباحثين من جوانب متعددة منها الجانب اللغوي أو الديني أو البيولوجي أو التكنولوجي إلى غير ذلك. لعل أهم باحث تطرق للمسألة من جانب لغوي هو السيد علي فهمي خشيم وهو مؤرخ ليبي مازال على قيد الحياة و أنا على إتصال به وعرضت عليه البعض من أفكاري التي إستحسنها.

بالنسبة لموضوع التعبيرات الثقافية نذكر رسما داخل قبر وجدناه في منطقة عين دراهم بالبلاد التونسية

وهو يرجع للقرن الرابع قبل الميلاد. هذا الرسم يبين سفينة النبي نوح مع من ركب فيها وحملته زمن

الطوفان. هذا دليل جلي على وعي سكان شمال إفريقيا الأوائل بأصلهم المشرقي مع العلم أن هذا السم المقبري

وقع نشره العلمي من طرف باحث فرنسي لكنه تعسف على تأويله و إعتبره مجرد مشهد سحري.

في عدة بلدان من قارة آسيا وفي منغوليا مثلا هناك حفل سنوي دوري هام جدا في تقديري أنه احتفال بذكرى نجاة النبي نوح ومن معه من الطوفان. يطلق إسم "نزام" على هذا الحفل. أعتقد جازما أن تفسير هده الكلمة

هو "نو" و تعني الماء و "زم" و تعني توقف الماء عن السيلان وبذلك يكون معنى العبارة واضحا وهي تخليد لهذه الذكرى الهامة من تاريخ البشرية و إحتفال المنغوليين

حتى اليوم بهذه الذكرى ليس إلا دليلا على أصولهم المشرقية.

كمثال أخير لنذكر المسرح المزدوج بروما و الذي يسمى مسرح "الكوليزي" لذكرى تمثال ضخم كان بجانب المبنى. هذه التسمية ليست غير عبارة "الغليظ" محرفة وهي تدل على ضخامة الجثة. هذا التمثال ليس إلا تمثال البشر الأول وهو آدم ويذكر حديث نبوي أنه ضخم الجثة مقارنة بحجم البشر حاليا وقد توارث عدة حضارات مسألة صنع تماثيل للأجداد الأوائل مثلا تماثيل جزيرة تسمى "باك". كذلك تبنى عدة ملوك وحكام هذه العادة لدرجة صار من الصعب فهم منشئها وأصولها. وجود هذا الصنف من التماثيل في روما وأهميته في حضارة أهلها دليل على طبيعة وعيهم بأصلهم الذي يتدرج حتى آدم جد البشرية الأول.

دليل أخير على أهمية وحدة الثقافة يتجلى من خلال الأهمية الكبرى التي يوليها اليابانيون للشجرة و يسمونها "بونزاي" وهو ليس إلا تعظيما و تخليدا لشجرة الجنة. مع الملاحظ أنه يمكن أن ننطق هذه العبارة بشكل مغاير قليلا ليتجلى لنا أصلها فنقول "من زاي" وهي تفيد معنى "من الجنة" لكن طول الزمن بدل نطقها وبالطبع طمس مدلولها بشكل صار يصعب التفطن له و كشفه. هذا دليل من اليابان على وحدة الأصل و الممارسات الثقافية.

رغم كثرة تفرعات هذا الملف العلمي لنتوقف عند بعض الأمثلة ذات الدلالة. لنأخذ أمثلة عن وحدة اللغات قديمها ثم حديثها ثم عن وحدة التعبيرات الثقافية وبالتالي الحضارات التي أنتجتها.

لنتوقف عند اللغة اليونانية و لنأخذ كلمة " ديموس" التي توجد في الجزء الأول من كلمة "ديمقراطية" هذه العبارة ليست إلا كلمة "دهماء" وهي عبارة عربية قديمة وهي نفسها تحريف لكلمة "عامة" و المقصود بها غالبية الناس. لنتأمل كلمة "بوتانيك" التي تعني علم النبات فهي ليست غير كلمة نبات غير مرتبة و كلمة "هيبو تالاموس" التي تعني الدماغ الصغير فهي كلمة "الخفي الدماغ" مبدلة. الأمثلة أكثر من هده بكثير و يضيق المجال هنا بحصرها كلها. هذا بخصوص الملاحظة و التفسير أما فيما يتعلق بتقديم المبررات لهذه الظاهرة فالأمر معقد و طويل و

باختصار فالمصادر اليونانية ذاتها تصرح بالأصل المشرقي للغتها و مكتسباتها التقنية. الملاحظ كذلك أن هذه الكلمة ليست الوحيدة ذات الأصل المشرقي و العربي تحديدا لكن المجال هنا ضيق لعرض المزيد.

لنذهب إلى اللغة اللاتينية الآن و لنذكر المثل التالي. يتكون المجتمع اللا تيني من عدة فئات منها فئة "السناتوريس" وهم كبار المجتمع سنا وقدرا وسلطة وهذه العبارة ليست غير ترجمة للكلمة العربية " المسنين" أو على الأرجح "المسنين الشيوخ" لكن تحريف نطقها يجعل التفطن لأصلها العربي ليس هينا. بالنسبة لتفسير ذلك فالمراجع العلمية

تفيد أن الحضارة الأترورية و التي تعتبر الحضارة اللاتينية ورثة لها هي من أصل مشرقي.

كذلك نجد في اللغة الفرنسية عددا هائلا من الكلمات ذات الأصل العربي تستحق وحدها عدة كتب و التفسير الأرجح أنها مرت من اللاتينية إلى الفرنسية. إلى جانب اعتبار التأثير الذي حدث في العالم بأسره على الجانب اللغوي بعد انتشار الدين الإسلامي مما يجعل التقصي هاما لتفادي الخلط التاريخي و التأصيل الصحيح للظواهر دون تعسف. المصادر الأروبية نفسها تصرح بأن حكام أوروبا في القرون الوسطى كانوا يتباهون بمعرفتهم لكلمات عربية. مثلا كلمة "الكحول" مرت مختصرة للفرنسية.

لكن هذا التفسير ليس ممكنا بالنسبة للأنقليزية التي هي ذات أصل بروتوني غالبا مع ذلك فهي تحتوي على عدة كلمات مشرقية الأصل. لنأخذ مثلا فعل نام و هو بالأنقليزية "سليب" وهو يترجم فكرة سلب روح الفرد أثناء النوم وهي فكرة جددها الإسلام. كذ لك للتعبير على المحبة الكلمة الأنكليزية هي "لوف" و هي كلمة الألفة العربية و التي يستعملها القرآن للتعبير عن العلاقة الحميمة بين الناس. هذه الشواهد ليست إلا بعض الأدلة القليلة على الصلة الوثيقة بين اللغة الأنكليزية و العربية. أي تفسير نقدم لهذه الظواهر اللغوية غير إرتباط الأصول القبلية البريطانية مع الأصول القبلية المشرقية منذ عهود قديمة.

بالطبع من المجدي جدا إنجاز منتجات علمية وثقافية مختلفة مثل البرامج والأفلام و غيرها للتعريف بهذا الحقل المعرفي وتثمين سبل إستغلاله بغاية إعطاء مغزى إيجابي للعولمة ووحدة الأصل و دون شك وحدة المصير.

أشير منذ البداية أن الكثير من الباحثين خاضوا في مبحث الرموز و حاولوا فك مدلولاتها و تأويل معانيها و منهم من جانب الصواب و منهم دون ذلك و مازال الملف يحتمل الكثير من الإضافة. ما حفزني كثيرا على الخوض في ملف الرموز ما لاحظته من طغيان المقاربات الغربية في تناول موضوع الرموز مما يسقطنا في فخ القراءة الأحادية لماضينا. الدافع الثاني هو ما أعتبره قصور القراءات المقترحة و التي تكتفي بتعداد الأمثلة المكتشفة دون أن ترقى لتبيان الأصول. الدافع الأخير هو الفصل بين ما أمدتنا به المصادر الدينية من ناحية و ما بين ما تمدنا به المصادر التاريخية مما خلق فصلا مصطنعا بين الدين و الدراسات العلمية في موضوع الرموز والثقافة المادية للحضارات السابقة. لكل هذه الأسباب إلتجأت لفتح ملف الرموز وتقديم هذه المقاربة الجديدة.

لا يسعني في هذا السياق إلا أن أدعو و لعلني ألح في ذلك لمزيد تكثيف و تعميق البحث في حقل الذاكرة لمزيد تفجير هدا المخزون الثري و تعزيز إمكانيات تثمينه و يمكن السعي في إطار مشروع لتوحيد المادة المصدرية لكل الثقافات حول الرموز و محاولة تجاوز مسألة تصور إمتلاك كل حضارة لأسفارها دون سعي للربط بما يمتلكه الآخرون و نبذ فكرة توقع كل قوم إمتلاك الحقيقة في هذا الحقل المعرفي بل إرساء مقاربة أكثر ما تكون شمولية و متأنية هاجسها الأسمى الفهم الصحيح و الكشف النزيه عن المعرفة.

بالنسبة للمنهجية المتبعة في العمل فالقراءة التي توخيتها هنا هي جزء من مقاربة شخصية أشمل و أعم تقدمت كثيرا في بلورتها وقد إرتأيت أن أسمي هذا المبحث "نظرية الفردوس المفقود" وهو يفسر عددا هاما من الظواهر الثقافية و اللغوية و علا قتها ببعضها و سببية إستمرارها حتى يومنا هذا. في تناولنا لدراسة و فهم هذا العدد من الرموز فإن تحليلها بشكل منفرد الواحد عن الآخر يمكن أن يكون مهما و لكن الأهم و الأكثر دلالة قراءتها في سياق

متسلسل و تعتبر هذه المحاولة التي أبسطها لكم الآن طريفة و أصيلة و لم يسبق لها أحد في الكتابات العلمية حول هذا الموضوع.

تمثل الرموز التي سنأتي إلى بسطها في هذا الصدد حلقة صغيرة و لكنها مفصلية من هذا الملف الواسع. هذه الأشكال التي سأركز عليها هنا شديدة التواتر و الحضور في الثقافات الشعبية في كل الأزمنة و في أماكن مختلفة من العالم وقد تناقلتها الأجيال بأمانة تكاد تكون قدسية وإن وقع تبديل مدلولاتها و دواعي إبتكارها فإنها ظلت ثابتة لكني أرى أن ما قدمه الباحثون في شرحها لا يشفي الغليل. لقد إرتأيت التوقف عند هذه الرموز و ليس غيرها لخصوصيتها الشديدة و إيمانا مني بقيمتها الكونية و سأقدم في هذا الصدد مقاربة شخصية و أصيلة و غير مسبوقة في فك مدلولاتها و بيان أن جملة هذه الأشكال ليست اعتباطية بل ذات علاقة وطيدة ببعضها وهي حلقة هامة من تاريخ الجنس البشري ويمكن القول دون مبالغة بأنها من أهم حلقات المغامرة الإنسانية لأنها تخلد أول و أهم إمتحان للعائلة الإنسانية وهو إختبار أبيهم آدم وأمهم حواء بشجرة الجنة. في هذا المقام مجموعة الرموز التي أود التوقف عندها هي الثالوث و الشجرة و الثمرة و الحية و الحمار و الديك ثم الساق و اليد و أخيرا العربة المجرورة.

إذا في إطار هذه القراءة سأبدأ برمز الثالوث(1). هذا الرمز يترجم بعدة أشكال و صيغ فنجد شكل المثلث و شكل الورقة المثلثة (شكل 1. صورة لقطعة من لعبة ورقية يمثل ورقة مثلثة) و المداخل الثلاث إلى غير ذلك. حسب رأيي فإن أهم إشارة للتثليث تخص كينونات الخلق الثلاث و هي الملائكة و الجن و الإنس و التي يخلدها القرآن الكريم في مواطن متعددة. مثلا نذ كر الآية رقم 29 من سورة البقرة "و إذ قال ربك إني جاعل في الأرض خليفة قالوا أتجعل فيها من يفسد فيها و يسفك الدماء م نحن نسبح بحمدك و نقدس لك" و هنا تبيان لهذه الكينونات و لعلاقتها. هناك دلالة ثانية يمكن أن نقدمها للثالوث لكنها في نظري ثانوية وهي المتمثلة في أن الثالوث يمكن أن يرمز لآدم و حواء و إبليس باعتبارهم المشتركين في عصيان الأمر الرباني بخصوص شجرة الجنة.

تعتبر فكرة الثالوث حاضرة جدا لدى كل الحضارات البشرية في كل الأزمنة و قد كانت منتشرة لدى الثقافات السابقة للدين المسيحي و لما جاءت المسيحية تبنت هذا الرمز و أعطته طابعا خاصا بها وهو الله و المسيح و الروح القدس و لما تحرفت المسيحية وقع تحريفه و صار منسجما مع هذا التصور.

يمثل إمتحان شجرة الجنة مسألة هامة و له علاقة بعدد من رموز مقالنا و دلالتها. عند رفض إبليس الإعتراف بتكليف آدم بالخلافة عوقب بالطرد من الجنة و ظل إبليس مصرا على العودة للجنة و حريصا على دخولها وقد جاءته فكرة وهي الدخول متخفيا للجنة لذلك إختبأ وراء ذيل حمار كما ورد مثلا عند إبن كثير في البداية و النهاية لذلك بقي الحمار يحمل وزر هذه الفعلة و ينعته الناس بقلة الفهم إلى يومنا هذا(2). في نفس الوقت تفطن أحد سكان الجنة من الحيوانات لتسلل إبليس و شهر به وكان هذا الحيوان هو الديك(3) و حتى يومنا ترى المعتقدات الشعبية أن الديك يصيح كلما رأى الجن علاوة على ذلك تحول الديك إلى حيوان مبارك وقد وقرته عدة حضارات دون شك تكريما له لتشهيره بإبليس فمن ذلك مثلا الشعوب الغالية التي إتخذت من الديك رمزا لها (شكل 2. مشهد جنائزي يمثل ديكا من مقبرة أترورية بايطاليا).

عندما نجح إبليس في دخول الجنة سعى جاهدا لإيقاع آدم و حواء في الخطأ و لم يجد فعلة أشنع من دفعهما على إنتهاك الأمر الإلاهي بالمنع من الإقتراب من شجرة الجنة و مراودتهما بالأكل منها فظل يلح عليهما بذلك حتى أذعنا له ولما رغبا في المشي نحو الشجرة رفضت ساق آدم و حواء اليمنى القيام بذلك و أخالها قالت لهما أنها تستنكر القيام بذلك لأنها أدركت النهي الإلاهي و لا غرابة من ذلك ففي العقيدة الإسلامية مثلا كل جوارح البشر ستكون محل سؤال رباني عن كل ما بدر عنها من أفعال في الدنيا. أما حين أن الساق اليسرى فيبدو أنها لم تبال بذلك. هذا الذي يفسر أن الساق اليمنى محل تكريم من كل الحضارات في كل زمان بداية بحضارات ما قبل التاريخ التي وصلتها منها شواهد أثرية في حين أن الساق اليسرى منبوذة. كذلك بالنسبة للأيدي فلما إقترب آدم و حواء من الشجرة و رغبا

في قطف ثمرتها إمتنعت اليد اليمنى عن القيام بذلك في حين أن اليد اليسرى فعلت. لذلك هي حتى اليوم محل تشاؤم جراء ما صدر منها من فعل إنتهاك حرمة شجرة الجنة(4). لقد ظلت شجرة الجنة محل تبجيل من البشر على مر الأزمنة(5) . لنذكر على سبيل المثال اليابانيين الذين لديهم طقس العناية بالشجرة المصغرة وعلى الأرجح أن هذه الشجرة ليست إلا أنموذج لشجرة الفردوس (شكل 3. الشجرة المصغرة لدى اليابانيين). كذلك المسيحيون في ذكرى رأس السنة ينصبون شجرة محلات و مثقلة بالثمار كصورة لشجرة الجنة.

ما بالنسبة لرمز الأفعى فالمصادر شحيحة في المعلومات حول مدلولها و عن تفاصيل علاقتها بهذه القصة و يرجح دون شك أنها كانت حارسة للشجرة و لثمرتها(6) أو أن إبليس بطريقة ما أفلح في جعلها تقصر في ما أنيط بعهدتها من حراسة الشجرة و مازالت الحية حتى يومنا هذا تمثل هاجس التنطع لدى البشر و لا أدل على ذلك من ممارسة ترويض الأفاعي التي ظلت متواصلة في آسيا عموما في الهند بالأخص و هي دليل جلي لذكرى نشوزها الأول الذي كان له إنعكاس يعلم الجميع ما أدى إليه.



صورة رقم 2:إناء فخاري بوني من مقبرة بقرطاج يمثل سفينة نوح رسم عليها مشهد آدم و حواء و إبليس يقطفون ثمرة الجنة

إن وصول آدم و حواء للشجرة وأكلهما منها فعلة بقيت عالقة في ذهن البشرية بشكل كبير و كمثال على ذلك فالبروز في الحنجرة يطلق عليه "تفاحة آدم" و كأن ثمرة شجرة الجنة ظلت عالقة في فم آدم تكشف عن صنيعه. لما فعل آدم و حواء ما فعلاه كان جزاؤهما الهبوط من الجنة و قد وقع تخليد هذه الحادثة في الشواهد الأثرية المختلفة التي تصور هبوط آدم و حواء معا أو كل على حده على عربة مجرورة و تترجم كل ثقافة هذه العربة و الدواب التي تسوقها بشكل متلائم مع بيئتها فهي إما أحصنة أو ثيران أو أيائل(7) و كلها تخلد ذكرى الهبوط من الفردوس الأعلى إلى عالم الأرض حيث تبدأ لأبيونا آدم و حواء مغامرة جديدة هي مغامرة الدنيا (شكل 4. لوحة فخارية من الموقع البوني بكركوان تمثل العربة المجرورة التي هبط بها آدم من الجنة).

لقد ظلت تجربة الجنة و الهبوط منها مسيطرة على شخصية البشر تسكن ذواتهم في كل التفاصيل التي تهم حياتهم في الأرض (شكل 5. رسم مقبري من موقع كركوان يمثل عودة الرو ح لمنزلها في الجنة). لقد توصلت لفك رموز كثيرة تبين كونية هذه الملحمة و قد بلوتها في إطار بحث سميته "نظرية الفردوس المفقود" و ما هذه القصة إلا الجزء الأول منه أما الجزء الثاني فيبدأ بسعي كل من آدم و حواء لملاقاة بعضهما في الأرض. لعمري أن هذه المغامرة البشرية مدعاة للتفكر و الاعتبار حول وحدة الأصل و إشتراك المصير و هو مبحث يحثا على التقارب و التحاور و تعميق التعارف و توطيده.

-الهوامش:

* عادل نجيم كلية الآداب و العلوم الإنسانية بصفاقس(الجمهورية التونسية) / njim_adel@yahoo.com

1. حول رمز الثالوث أنظر مثلا جان شوفاليي و ألان غييربرنت. قاموس الرموز(باللغة الفرنسية). باريس 1997. الصفحات 768-772. أنظر كذلك مالك شبل. معجم الرموز الإسلامية (الترجمة العربية). بيروت 2000. صفحة 67.

2. حول موضوع الحمار في عدة ثقافات أنظر جان شوفاليي و ألان غييربرنت (المرجع السابق). الصفحات 31-33 أنظر أيضا مالك شبل (المرجع السابق). الصفحات 101-102.

3. أنظر جان شوفاليي و ألان غييربرنت (المرجع السابق). الصفحات 220-222. حول الديك كذلك راجع مالك شبل (المرجع السابق). الصفحات 129-130.

4. بخصوص ر مزية اليد أنظر جان شوفاليي و ألان غييربرنت (المرجع السابق). الصفحات 291-293. حول منظور العرب لليمين و اليسار راجع مللك شبل (نفس المرجع). الصفحات 349-350.

5. فبما يتعلق بالشجرة و رمزيتها أنظر جان شوفاليي و ألان غييربرنت (المرجع السابق). الصفحات 48-53. أنظر أيضا حول مدلول الشجرة لدى العرب مالك شبل (المرجع السابق). الصفحات 145 و 169-170

6. بخصوص الحنش و دلالته أنظر جان شوفاليي و ألان غييربرنت (المرجع السابق). الصفحات 687-696.

أنظر حول منظور العرب للحية. مالك شبل (المرجع السابق). الصفحات 160-107 و 169-170.

.165-163



الريف الشرقي المغربي في مسار ليون الإفريقي
حصن تزوضا المريني أنموذجا



منير حداد
باحث في التراث



ملخص:

حصن تازوضا، موقع أثري بقلب جبال كوركو المتواجدة بمدينة الناظور. أشار إليه مجموعة من المؤرخين والجغرافيين في كتاباتهم. ولكنه لم يحض بالدراسة الأركيولوجية اللازمة التي ستكشف حتما عن خباياه، على اعتبار أن ما تبقى منه، لا يساعد الباحثين في الكشف عن التاريخ الحقيقي لهذا الموقع.

زيارة "الحسن الوزان"الملقب بليون الإفريقي للموقع خلال النصف الأول من القرن 16م، قدمت لنا معطيات تاريخية وجغرافية اختلفت في بعضها عن الكتابات التاريخية السابقة، مما أضفى على التقرير الذي قدمه لنا في كتابه"وصف إفريقيا"، نوع من التميز عن ما قدمه لنا سابقوه. ومن خلال هذه القراءة، ومقارنتها بالمعلومات سواء السابقة أو اللاحقة أو الحالية، فما أستخلصه أن معلومات التي وردت في تقرير الحسن الوزان عن الحصن المريني كانت دقيقة إلى حد كبير.

مقدمـة

إن منطقة الريف الشرقي، تحتضن ماضيا تاريخيا دفينا ينتظر من ينفض الغبار عنه. ويدل وجود مواقع أثرية مهمة بالمنطقة، على أن هذه الأخيرة كانت حاضرة و بقوة في مسلسل الأحداث التاريخية التي طبعت تاريخ المغرب، بل وأكثر من ذلك فإنها لعبت في بعض الأحيان دور البطولة. ومن بين المواقع التي بصمت تاريخ المنطقة: ثازوضا، وهي حصن طبيعي استراتيجي منيع، استعمل في مواجهة أعداء المغرب في بعض الفترات التاريخية. ورد ذكر هذا الموقع الأثري في كثيرمن الكتابات التاريخية المشرقية والمحلية والأجنبية، وهذا ما يعكس أهميته. وفي مقالي هذا سأسلط الضوء بالدرجة الأولى على الوصف الذي قدمه لنا الرحالة ليون الإفريقي لهذا الحصن.

الاشكال المطروح، هو مدى صحة المعلومات التي قدمها لنا الحسن الوزان عن حصن تزوضا، وما مدى تطابقها مع باقي المعطيات التاريخية، والجغرافية.

1ـ جغرافية الموقع 1:

تقع ثازوضا**2**، فوق قمة جبل غورغو البركاني**3**، على ارتفاع 887م، وتغطي مساحة تقدر ب 5400 هكتار، منها 1800هكتار غابوية. مناخها شبه رطب المعتدل في فصل الشتاء**4**. أسس حصن ثازوضا على بقعة صخرية جرانيتية، لايمكن الوصول إليها إلا عبر المسلك الشرقي الوحيد، نتيجة الارتفاع العمودي للحافات الثلاث الغربية والشمالية والجنوبية وهي تشكل بذاتها حصنا طبيعيا يصعب اقتحامه**5** (الصورة 2)**6**.

الحصن المريني يوجد في الجانب الغربي للهضبة، حيث تضيق مساحته وترتفع حافاته جهة الجنوب، ولم يتبق من الحصن سوى خرائب، وركام الأحجار. (الصور رقم 3)**7**.

2ـ إشكالية التسمية:

ثزوضا حسب النطق المحلي**8**، ولعل هذا الاسم الأقرب إلى الواقع كما هو مشار إليه في (الصورة4)**9** وتزوطة حسب اللهجة الزناتية**10**، عرفت بحصن بني ورتدي**11**، نسبة لسكان بلاد القلاع الأقدمين.

أطلق عليها قلعة جارة**12**، ويعتقد الباحث مصطفى الغديري**13**، أن اسم جارة أو جارت تحريف صوتي لحرف الياء الذي ينطق جيما في بعض اللهجات المحلية في الريف**14**، فالأصل هو يارث ومعناها الأراضي الفلاحية الكبرى المتمثلة في السهول الخصبة. أطلق عليها اسم بلد القلوع أو القلاع**15**، نظرا لانتشار القلاع في هذه المنطقة**16**، كما سميت بقلعة كرط **17**،أو كرت.

تسمية القلعة أو الحصن بهذه الأسماء هي نسبة إلى المجال الجغرافي لكونها تطل على سهول يارث من جهة الجنوب والشرق**18**.

ويعتبر الأستاذ حسن الفكيكي أن ظهور مصطلح "كرط "مرتبط باختفاء مصطلح بلد النكور**19**، فهذا المصطلح يظهر شكله على هيأة مجموعتين:

*جارت أو كارت أوقارت، الموضوعة للدلالة على المجال الإقليمي من بلد النكور، وجارت إذا أريد الإشارة إلى القلعة أو القلاع البارزة بالشمال الشرقي من ترابه.

*كرط أو كرت للإشارة إلى واد كرط، أهم مجاري الإقليم، أما السكان فينطقون بلفظ "يارث" تلميحا إلى الأراضي المرتبطة به أو إلى الإقليم**20**، وبالمصطلح شارط ،حينما يريدون الإشارة إلى وادي كرط.

ويرى الأستاذ حسن الفكيكي أن لفظ Garet **21**، قد حول اشتقاق المصطلح إلى لفظ جارة أو الكارة، ويعتقد أن كلا من اسم إقليم كرط وقلوع جارة مشتقان من اسم الوادي الذي هو أهم مصدر للمياه والخصب بالمنطقة**22**، ومما يزيد مصدر الاشتقاق تأكيدا أن المصطلحين: واد كرط وقلوع جارة أسبق في الظهور على لسان البكري من مصطلح جارت المنطقة أو الإقليم.

3ـ التاريخ الأدبي للموقع:

يعتبر بعض الباحثين المحدثين**23**، أن الحصن الذي تكلم عنه المؤرخ اللاتيني سالوست في كتابه حروب يوغرطا**24**، مطابق لموقع ثازوضا**25**. وتبقى أقدم إشارة تاريخية للمعلمة تعود إلى منتصف القرن الثالث الهجري (250هـ) التي أوردها البكري**26**، باسم قلعة جارة. تحصن بها أحد أمراء نكور**27**، ضد أخيه سعيد بن صالح النكوري.

بعد ذلك يأتي ابن حيان القرطبي (1076م) **28**، بإشارات عن تجديد بناء الحصن على عهد الخليفة عبد الرحمان الناصر الأندلسي(975م)، بطلب من موسى بن أبي العافية الذي كون إمارة مستقلة عن الدولة الإدريسية.

ابن عذاري المراكشي29، (1357م)، ردد نفس رواية الصراع بين موسى بن أبي العافية أمير إمارة مكناسة وبين الحسن بن أبي العيش أمير جراوة.

الحسن الوزان المعروف بليون الافريقي، سيمر بالمنطقة (النصف الأول من القرن 16م) ويقدم لنا تقريرا جغرافيا مهما **30** .

4ـ تزوضا في مسار ليون الإفريقي:

يعتبر التقريرالجغرافي لصاحب وصف إفريقيا، تقريرا شاملا جمع بين معطيات جغرافية وأخرى تاريخية. ومن خلاله سوف نقف عند أهم المعلومات التي وردت فيه ونحاول رصد آراء الباحثين حولها.

التقرير:

*** تزوطة بلدة من بلاد كرط، واقعة على بعد نحو خمسة عشر ميلا من غساسة إلى الداخل، وهي مبينة على ربوة عالية جدا، لها درب صغير يؤدي إليها ويدور حول الهضبة. وليس بداخل المدينة ماء غير ماء الخزان. وكان مؤسس تزوطة، من أسرة بني مرين قبل أن يصبحوا ملوكا البلاد، يحفظون فيها حبوبهم وأمتعتهم وبذلك كانوا يستطيعون الانتجاع في الصحاري بكل طمأنينة، إذ لم يكن في ذلك العصر أعراب في كرط. لكن ما أن استلم بنو مرين مقاليد الحكم حتى تركوا إقليم كرط لبعض جيرانهم مهتمين بأقاليم أكثر أهمية، إلى أن زحف يوسف بن يعقوب بجيشه على ملك تلمسان فقيده حصارها، وثار عليه أمير تزوطة في جميع جنده لاستيلاب ممتلكات الملك .استنفر الملك جيشا أرسله بقيادة أحد إخوته لمحاربة الثائر، فاتجه الجيش نحو تزوطة، وحاصرها طوال شهرين تقريبا، إلى أن سقطت وخربت بأمر من ملك فاس، وظلت خربة إلى أن استولى الاسبان على غساسة، فطلب احد قواد ملك فاس، وهو من أصل أندلسي، وعلى جانب كبير من الشجاعة، أن يؤذن له بإعادة بناء تزوطة، وأذن له بذلك وأعيد بناء المدينة. وتقوم اليوم بين نصارى غساسة ومسلمي تازوطة حرب دائمة وغارات متوالية، تكون الدائرة يوما على هؤلاء ويوما على أولئك*31.**

ذكر الوزان في تقريره أن تزوطة بلد32، وفي هذا الصدد يقول الباحث يوسف سعيدي،" أطلق عليها البعض اسم مدينة نظرا لشساعة المساحة التي كانت تشغلها قديما ولا تزال الآثار شاهدة عليها"**33**.

في وسط الهضبة يوجد ضريح يعرف باسم سيدي بوجمعة، وهو الآن في حالة إهمال حيث عبث بالقبر الباحثون عن الكنوز، وحول هذا الضريح توجد مقبرة كبيرة نسبيا تمتد من غربه باتجاه الشرق وقريبة من الطريق المعبد حديثا، وحسب مايظهر أن المقبرة كانت اكبر، ويعلل ذلك ما كان يعثر عليه أهل المنطقة أثناء حرثهم لبقع قريبة من المقبرة**34**، وهذا مايشير إلى أن الهضبة "المدينة" كانت آهلة بالسكان وبالتالي يمكن الحديث عن مدينة.(الصورة 5)**35**.

اعتبر الوزان تزوطة بلدة من بلاط كرط**36**، ويعتبر الوزان الوحيد الذي أشار إلى أن مملكة فاس، محتوية على سبعة أقاليم وهي: تامسنا وفاس وازغار والهبط والكرط والحوز والريف. وذكر في كتابه وصف افرقيا، أن إقليم كرط يضم مدينة مليلة وغساسة**37**، وبلدة تزوطة ومدينة امجاو. حدد الحسن بن محمد الوزان المسافة التي تفصل تزوطة عن غساسة في خمسة عشر ميلا**38**. ونجد مارمول كربخال، في كتابه افرقيا قد حددها في خمسة فراسخ**39**، وهي ليست ببعيدة عن الصواب، إذا ما اعتبرنا المسالك التي تؤدي إلى تازوطة عبر المرتفعات والمنخفضات من غساسة حوالي عشرين كيلومتر**40**.

في وصفه لتازوطة، ذكر الوزان أنها بنيت على ربوة عالية جدا، وهذا الوصف مطابق للواقع**41**، وللاسم المحلي ثزوضا الذي سبقت الإشارة إلى معناه، و(الصورة6)**42** ، هي خير معبر عن دقة وصف الوازن للمنطقة.

يتابع صاحب كتاب وصف افريقيا وصفه لتزوطة قائلا، بان لها دربا صغيرا يؤدي إليها ويدور حول الهضبة". إن من يريد أن يصل إلى تزوطة لابد أن يسلك مسلكا ملتويا على الهضبة سواء أتعلق الأمر بمن صعد إليها من الجهة الجنوبية (جهة زغنغان) (الصورة7)، أم من الجهة الشرقية انطلاقا من بني انصار أو اتجه اليها من الشمال انطلاقا من غساسة (الصورة 8)، ليسلك فجاج آيت شيكر**43**، مرورا بطرارة فإبعجاجن، ثم الانحدار من سلسلة التلال المطلة عليها من جهة الشمال الغربي.

انطلاقا من كتاب وصف إفريقيا للوزان، وإذا ما تتبعنا مسار هذا الأخير في إقليم كرط، فإننا نجد أنه تحدث عن مليلية أولا ثم غساسة ثم تزوطة ثم امجاو

وكأنه بهذا الترتيب يحدد لنا المسار الذي سلكه عند زيارته لهذا الإقليم.

لم يشر احد من المؤرخين، إلى تأسيس قلعة تازوطة من طرف بني مرين باستثناء الحسن الوزان. يرى الباحث حسن الفكيكي، أن هذه الإشارة لا تعبر سوى عن الاستقرار الزناتي بالقلعة**44**،لان تأسيس القلعة أقدم من ذلك**45**. ونفس الإشارة يرددها مرمول كربخال في كتابه إفريقيا بقوله: "يقول المؤلفون الأفارقة أن تازوطة أسست منذ أمد قريب من طرف بني مرين قبل إن يصبحوا ملوك فاس..."**46**.

ويأتي الناصري في كتابه الاستقصا بقوله: "... واتصل الخبر ببني مرين... وهم في جهات الريف وبلاد بطوية، فتركوا اثقالهم وعيالهم بحصن تازوطا من ارض الريف، وصمدوا إلى الموحدين، فالتقى الجمعان بوادي نكور، فكان الظهور لبني مرين على الموحدين..."**47**.

ونفهم من كلام الناصري، أن بنو مرين قد انطلقوا لمواجهة الموحدين من هذه القلعة، واتخذوها مركز لتموينهم واستقرار عائلاتهم وما إن تغلبوا على الموحدين، ووصلوا إلى فاس، سلموا القلعة التي كانت مقر خزن حبوبهم التي يجمعونها من سهول المنطقة إلى جيرانهم.

ذكر الحسن الوزان، أن أمير تازوطة ثارعلى يوسف بن يعقوب المريني حينما كان قد اشتغل بغزو تلسمان.

الثائر المعني في كلام الوزان، هو "عمر بن يحي بن الوزير الو طاسي"، وورد في كتاب العبر لابن خلدون**48**، أن هذا الأمير وثب على الحصن، وطرد عامل المرينيين "منصور بن عبد الواحد"، وفتك برجاله واستولى على ماكان بالحصن من متاع وأسلحة، وكان ذلك في حدود سنة 691هـ ولما بلغ السلطان المريني أبا يعقوب المنصور المريني ذلك، كلف وزيره أبا عمر بن السعود الحشمي بتجهيز الجيش للهجوم على الحصن، ثم تبعه بنفسه يقود جيشا إضافيا، فحاصر الحصن مدة شهرين، ومضيقا الخناق على عمر الثائر وأخيه عامر الذي انضم إليه من جيش السلطان، ففر عمر إلى تلمسان، وطلب الثاني الشفاعة من الأمير أبي سعيد فرج بن إسماعيل بن الأحمر، صاحب مالقة، الذي لبى نداءه ووفد على السلطان المريني بغية إصلاح البين بينه وبين الأخوين الثائرين على عامله بتازوطة"**49**. وهما من أبناء عمومة المرينيين، وكان أبو سعيد هذا، قد نزل بمرسى غساسة، في طريقه إلى تازوطة بوفده ومرافقيه**50**.

أشار الوزان إلى أن تزوطة خربت بأمر من السلطان المريني**51**، وهذا مارddه كذلك مارمول الذي قال : "....وقد دمرها ابن ثاني ملوك بني مرين، بسبب ثورة العامل..."**52**.

السلطان أبا يعقوب، قرر تدمير تزوطة وتخريبها خوفا من موقعها الحصين الذي شكل خطورة على ملكه ونفوذ بني مرين، كما يوضح ذلك الناصري في كتابه الاستقصا**53**. يشير صاحب وصف إفريقيا إلى أن تزوطة، بقيت خربة إلى أن سقطت الأندلس نهائيا، وما تلاها من سقوط بعض الحصون بأيدي الاسبان بمنطقة الريف الشرقي كمليلية وغساسة 903هـ 911هـ/1497م، 1506م). كما يشير إلى ان أحد قواد ملك فاس**54**، وهو من أصل فارسي، طلب من ملك فاس**55**، إعادة بناء تازوطة لاتخاذها قاعدة جهادية لمواجهة الاسبان**56**، ويردد مارمول كربخال نفس الشيء بقوله "...حيث ان أحد الغرناطيين الفارين الى افرقيا، بعد أن طلبها من ملك فاس، عمرها من جديد ببعض الاندلسيين، وأخذ يشن منها غارات على مسيحيي غساسة ومليلية..."**57**.

بعد احتلال الاسبان مدينة غساسة المجاورة لتازوطة، طلب القائد الأندلسي علي بن إبراهيم العطار الأندلسي من السلطان الوطاسي محمد الشيخ، بإعادة بناء قلعة تزوطة لتكون جبهة جهادية لمحاربة اسبان مليلة وغساسة سنة 939هـ /1533م**58**.

استمرت تزوطة في تأدية رسالتها الجهادية وأشار الوزان بذلك بقوله أن اليوم تقوم بين نصارى غساسة ومسلمي تازوطة حرب دائمة تكون الدائرة يوما على هؤلاء ويوما على أولئك**59**.

ويخبرنا مارمول كربخال، الذي كان أسيرا لدى السعديين في الفترة مابين 1557م-1571م، بأنه يقيم بتازوطة الشريف الحالي**60**، عاملا تحت إمرته ستون فارسا وثلاثمائة من رماة البنادق القذافة، وهم آخذون حذرهم من الأتراك**61**.

ويحيلنا مارمول الى ظهور عدو جديد في المواجهة، تمثل في الأتراك الذين كانت لهم إطماع بالمنطقة، لأنهم

كانوا يحتلون الجزائر وكانوا سادة البحر الأبيض المتوسط في تلك الفترة.

خاتمـــة:

تزوطة فرضت نفسها كموقع استراتيجي، لعب أدوارا مهمة في تاريخ المغرب. تردد ذكرها عند أكثر من مؤرخ، مخلدا بذلك ذكراها. شكل وجودها أهمية على المستوى السياسي أو الاجتماعي أو التجاري. فإذا كان المغرب غنيا بتاريخه وتراثه ومآثره، وبرصيده الحضاري الشاهدة عليه مواقع كثيرة ومتعددة ومتنوعة، فهناك جزء كبير من هذا الرصيد لازال مجهولا وماتزال شواهده مطمورة في العديد من المواقع التي تصحح كتب التاريخ بذكرها وباستعراض الأحداث المهمة التي مرت بها.

إن ما تبقى من تزوطة المرينية الآن (الصورة 9)، خرائب وركام من الأحجارلا توفر للزائر لها، أو الباحث في تاريخها، ما يحتاجه ليستكمل بحثه الميداني62. لدى من الضروري القيام بأبحاث اركيولوجية في موقع تزوطة، والتي سوف تجيب عن كثير من التساؤلات والإشكاليات أولها، من هو المؤسس الفعلي للقلعة ؟ وكذا شكل الحقيقي للقلعة المرينية. هي دعوة الى المهتمين والمختصين في هذا المجال للكشف عن خبايا هذا الموقع الأثري ورد الجميل له لأنه كان في السابق واجهة جهادية ضد أعداء المغرب.

موقع تازوضا الذي يعتبر ثراثا طبيعيا وثقافيا والذي تم إعلانه في الجريدة الرسمية ثراثا وطنيا63، يحتاج إلى رد الاعتبار لأسوار الحصن المريني والباب الرئيسي، وإلى إجراء حفريات للكشف عن الحضارات التي تعاقبت عليه.

لا بد من ترميم وصيانة هذه العناصر المعمارية لكي لا تندثر مع مرور الزمن. ولكي تتم العملية بنجاح لا بد من استدعاء المختصين. الأسوار تكسوها الأتربة وبالتالي تحتاج لعملية تنظيف وإزالة الأتربة لإبراز الأسوار.

-الهوامش:

1 ـ أنظر الصورة 1، بملحق الصور.

2 ـ نحاول الإشارة من خلال الاسم ثزوضا إلى الهضبة التي تحتضن البرج الاسباني، وخرائب الحصن المريني.

3ـ يعتبر موقعا بيولوجيا وإيكولوجيا مهما لما يزخر به من ثروات نباتية وحيوانية.

4ـ المديرية الإقليمية للمياه والغابات ومحاربة التصحر ،الناظور.

5- حسن الفيكيكي، تازوطا، معلمة المغرب، تأليف مجموعة من الباحثين، مطابع سلا، ج2،1989، ص. 2040. وحتى الزائر للموقع يستنتج نفس الشيء.

6ـ أنظر ملحق الصور

7 ـ أنظر ملحق الصور.

8 - ثا زوضا بالامازيغية تعني القصعة أو اناء دائري وهو اسم اقرب إلى الواقع انظر الصورة.

9ـ أنظر ملحق الصور.

10- استعمل هذا الاسم الوزان في كتابه وصف إفريقيا ابن خلدون في كتابه العبر، ابن أبي زرع الفاسي في كتابه الأنيس المطرب ،ومارمول كربخال في كتابه إفريقيا.

11- ورتدي ينتمون بالأصل إلى بطوية أي الفصلة الصنهاجية المستقرة من كبدانة إلى مرتفعات تمسمان إشارة من ابن الحوقل في صورة الأرض، ص 73.

12- ورد الاسم في المسالك والممالك لابوعبيد البكري الأندلسي، البيان المغرب لابن عذارى المراكشي،المقتبس لابن حيان.

13- مصطفى الغديري، موضوعات وقضايا الريف، سلسلة كتب الريف ، ط 1 ، 2009، ص 184.

14- بني يشكر يقولون بوجافر، ايت سيدال بويافر...

15- انظر مونوغرافية المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف لعبد الحق البادسي تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية بالرباط، 1982.

16- انظر المقاومة المغربية للوجود الاسباني بمليلية حسن الفكيكي ص 31 منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية الرباط. سلسلة رسائل واطورحات رقم 39، 1997.

17- مثلت قلعة كرط مركز القوة القبلية لا على القلوع فحسب،بل على مساحة هامة من بلد النكور،حسن الفكيكي،مليلية حاضرة قلوع كرط،ص،53 مساهمة في مجلة دار النيابة،العدد 7،السنة الثانية 1985..

18- مصطفى الغديري ،موضوعات وقضايا الريف مازال هذا المصطلح الجغرافي يردده المهتمون بالفلاحة في الريف.

19- انظر المقاومة المغربية للوجود الاسباني حسن الفكيكي ص 26.

20- انظر المقاومة المغربية للوجود الاسباني بمليلة، حسن الفكيكي منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط، سلسلة رسائل اطروحات رقم 39، ص 24.

21- جارة اختص بها البكري في مسالكه،و ابن حيان في المقتبس.

جارت حسب: محمد بن عبد القادر الكردودي، الدر المنضد الفاخر فيما لابناء مولانا على الشريف من المحاسن والمفاخر، وثيقة اولاد القاضي ببني سعيد بتاريخ 3 جمادى الثانية 1172.

كارت عند اكنسوس الجيش العرمرم ص 178، انظر هامش ص 24 لكتاب المقاومة المغربية للوجود الاسباني بمليلية حسن الفكيكي.

22 - حسب الباحث الاسباني Angello Ghirelli و ورد كذلك في مذكرات التاجر الفرنسي رولان فريجوس.

23ـ إنخيلو كيرلي، الباحث الاسباني الذي اعتبر أن وصف سالوست مطابق لنزوضا، أنظر في هذا الشأن: مقال الباحث يوسف السعيدي في مجلة: منتدى التعمير والبيئة والتنمية حول تزوضا، 2008، ص، 3

24ـ * غير بعيد عن نهر ملوشا، الفاصل بين مملكتي بوكوس ويوغرطا، يوجد جبل صخري يبلغ ارتفاعا عظيما، مكنت سعته من إقامة حصن صغير لا يوصل اليه إلا عن طريق ممر ضيق جدا، أما الباقي فأجراف تنزل عموديا....* نفس المقال، ص، 3.

25 ـ هذا الرأي يبقى خاصا بصاحبه، لأن نص سالوست قابل لتأويل، ولا يمكن التأكد من ذلك إلا بالقيام بحفريات أركيولوجية.

26- انظر المسالك والممالك، ابوعبيد الله البكري الأندلسي، تحقيق أدريان فان لوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1992، 769/2. * ...قلوع جارة وهي حصن منيع في أعلى جبل لا متناول له ولا مطمع فيه، ومنه إلى مليلة...*. 753/2.

27 ـ سعادة الله بن هارون النكوري.

28ـ المقتبس لابن حيان، ج، 5، شالمينا، المعهد العربي للثقافة بمدريد، 1979. ص. 387

29ـ البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب لابن عذاري، تحقيق كولان وليفي بروفنسال، دار الثقافة، بيروت، ط2، 1980.

30- كتاب وصف افرقيا لحسن محمد الوزان الفاسي ج1 ط 2 صص 342-343

31- من الملفت للانتباه أن هذا التقرير يتطابق الى حد كبير مع تقرير مارمول كاربخال مما يدفع الى القول ان هذا الأخير في كتابه افرقيا قد اطلع على كتاب الوزان واخذ الكثير من المعلومات منه ونسخها في كتابه.

32- اعطيت لها صفة مدينة كذلك من طرف مرمول كربخال في كتابه افريقيا.

33- مقال ليوسف السعيدي، منتدى التعمير والبيئة والتنمية، ص.6، ماي 2008.

34- المقال نفسه، ص6.

35 ـ أنظر ملحق الصور.

36- اقليم كرط، سابع اقليم من أقاليم مملكة فاس حسب ليون الإفريقي.

37ـ المركز البحري المفضل لدى حكام قلعة تزوطة من المرينين، حيث أنهم استغنوا عن الطريق الموحدية وفضلوا المرور بجبال اكزناية والمطالسة والدخول بعد ذلك حوضي وادي كرط الأوسط منه والأدنى للوصول إلى غساسة عبر خمس بني بوغافر. أنظر:حسن الفيكيكي، المقاومة المغربية للوجود الاسباني بمليلية ص 42.

38- الميل الف ذراع عند العرب، ألف خطوة عند الرومان يساوي نحو 1340 مترا.

39-الفرسخ ثلاثة أميال حسب القاموس المحيط

40- مسافة مقدمة من طرف مصالح جماعة بني شيكر.

41- مارمول كربخال يصفها بانها مدينة صغيرة مشيدة على راس صخرة.

42 ـ أنظر ملحق الصور.

43- موضوعات وقضايا الريف، مصطفى الغديري سلسلة كتب الريف ط 1، 2009.

44- انظر المقاومة المغربية للوجود الاسباني الفكيكي ص 40.

45- انظر كتاب المسالك و الممالك للبكري، 764/2 ،حيث تحدث عن لجوء احد امراء نكور الى تزوطة وهو سعادة الله بن هارون النكوري ليستمد منها قوته ضد اخيه امير النكور سعيد بن صالح النكوري وهي اشارة تعود الى منتصف القرن الثالث الهجري.

46- افرقيا لمارمول كربخال 264/2.

47- انظر الاستقصا للناصري 6/3.

48- كتاب العبر لابن خلدون ج 7، ص 402 والاستقصا للناصري 72/3-74.

49- انظر الإنيس المطرب بروض القرطاس،علي ابن ابي زرع الفاسي، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط 1972 ص 381.

50- انظر الإستقصا 72/3ـ74.

51-هو أبو يعقوب يوسف بن يعقوب المنصور المريني.

52- انظر افرقيا لمارمول كربخال 264/2.

53- انظر الاستقصا 72/3 - 74.

54- علي بن إبراهيم العطار الأندلسي.

55-. السلطان الو طاسي محمد الشيخ.

56-. انظر وصف افريقيا للوزان 267/266.

57- انظر افرقيا لمارمول كربخال 264/2.

58- انظر المقاومة المغربية للوجود الاسباني بمليلية 1697-1859 حسن الفكيكي منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط سلسلة رسائل وأطروحات رقم 39 ط 1 1997. ص 42.

59- انظر وصف افرقيا للوزان 267/1.

60- هو عبد الله الغالب السعدي.

61- انظر إفريقيا لمار مول كربخال 264/2.

62ـ يرى الباحث منتصر لوكيلي، أن المستعمر الإسباني تسبب هو كذلك في تلك الخرائب باستعمال جزء كبير من الحجارة لبناء البرج الإسباني فوق الهضبة. أنظر:

Laoukili(M), Essai sur les prémisses de la recherche archéologique dans le rif oriental, Revue Patriùoine Marocain, n :1, Tanger, 2008, p. 49.

63ـ قرار تقييد منطقة تازوضا في عداد الآثار، الجريدة الرسمية، السنةالثالثة بعد المئة، ع 6292، ص. 6951، الرباط. 18 شتنبر 2014.

-لائحة المصادر والمراجع العربية:

<u>المصادر:</u>

ـ ابن الحوقل البغدادي الموصلي، صورة الأرض، أفست ليدن، مطبعة بيروت، 1938.

ـ ابن حيان الأندلسي، المقتبس، شالميتا، المعهد العربي للثقافة بمدريد، ج.5، ص. 387، مدريد، 1979.

ـ ابن خلدون عبد الرحمان، كتاب العبروديوان المبتدأ والخبرفي أيام العرب والعجم والبربرومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، ط.1، ج.7، بيروت، 1992.

ـ ابن عذاري المراكشي، البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق ومراجعة ج.س.كولان، ليفي بروفنسال، دار الثقافة، ط.2، بيروت، 1980.

ـ ابن أبي زرع الفاسي، الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة، ط.1، الرباط، 1992.

ـ ابوعبيد الله البكري الأندلسي، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان لوفن وأندري فيري، الدار العربية للكتاب، تونس، 1992.

ـ الناصري أحمد بن خالد، الإستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج.3، الدار البيضاء، 1956.

ـ البادسي عبد الحق بن اسماعيل، مونوغرافية المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد اعراب، المطبعة الملكية، الرباط، 1984.

ـ مارمول كاربخال، إفريقيا، ترجمة محمد حجي والمجموعة، دار المعارف الجديدة، ج.2، الرباط، 1984.

ـ الوزان الحسن بن محمد، ترجمة محمد حجي والمجموعة، مطبعة وراقة البلاد، ج.1، الرباط ،

ـ البادسي عبد الحق، مونوغرافية المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الريف، تحقيق سعيد أعراب، المطبعة الملكية بالرباط، 1982.

<u>المراجع:</u>

ـ الفكيكي حسن، المقاومة المغربية للوجود الإسباني بمليلية(1967ـ1859)، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة أطروحات رقم 39، مطبعة النجاح الجديدة، ط1، الدارالبيضاء، 1997.

ـ الفكيكي حسن، مليلية حاضرة قلوع كرط، مجلة دار النيابة، ع.7، الرباط ، 1985.

ـ الغديري مصطفى، موضوعات وقضايا الريف، سلسلة كتب الريف، مطبعة الجسور، ط.1، وجدة، 2009.

ـ الفيكيكي حسن، تازوضا، معلمة المغرب، ج.6 الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا، 1992.

ـ المهداوي عبد الواحد، حماية التراث بالمغرب مقاربة تاريخية وقانونية، مطبعة شالة، الرباط، 2013.

<u>المقالات:</u>

ـ السعيدي يوسف، تازوضا، منتدى التعمير والبيئة والتمية، الناظور، 2008.

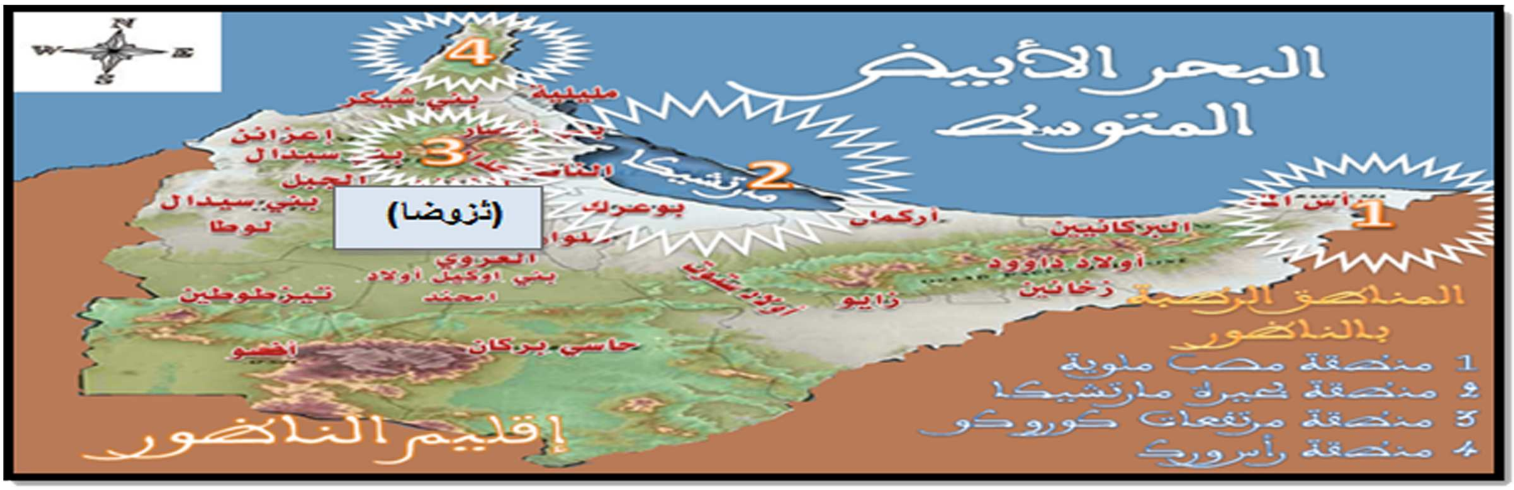
<u>Articles :</u>

-Belatik(M), Kalaat Djara, forteresse médivale indalouse sur la cote méditerranéenne du Maghreb al A ksa, B.A.M. 23, Rabat, 2016

-Ghirelli(Angelo), Apuntes historicas sobre las ruines de Tazuda, Africa revista de las tropas coloniales, Abril 1930.

-Laoukili(M), Essai sur les prémisses de la recherche archéologique dans le rif oriental, Revue Patrimoine Marocain, n :1, Tanger, 2008.

الملحق



خريطة تبين الموقع الجغرافي لتروضة بجبال كوروكو















هضبة تازوضا. صورة ملتقطة من عين المكان.



دور الفقهاء في التصدي لبعض المستحدثات خلال العهد السعدي "التبغ نموذجا"



مراد المعاشي
باحث في تاريخ المغرب

تقديم:

عرف المغرب بعد وفاة "أبي عنان المريني" سنة 1358م، فترة حرجة من تاريخه، يصطلح على تسميتها بعصر الأزمة الكبرى، التي مست كل البلاد وشتى المجالات، حيث شهد المغرب تشرذما سياسيا ولم تعد فيه سلطة موحدة، كما عرف خلال هذه الفترة الغزوات الإيبيرية على السواحل المغربية واحتلال مجموعة من ثغوره الساحلية، هذا بالإضافة إلى سنوات القحط والجفاف المتوالية، وغيرها من الأمور المرتبطة بذلك، حتى ظن الناس أن الساعة قائمة لا محالة.

كل هذه الأمور أثرت على نشاط الفكر المغربي الذي ظل جامدا لا يتحرك منذ أمد طويل، إلى أن شهد المغرب عودة الاستقرار السياسي والأمني مع الدولة السعدية، مما ساعد على بزوغ حركة فكرية وأدبية كبيرة[1]، نتجت هذه الحركة عن انتقال المغرب من عصر وسيطي إلى عصر حديث، وقد همت -الحركة الفكرية والأدبية- مختلف الميادين، تمثلت دينيا في صعود التصوف على سطح الأحداث، وسياسيا في وصول الأشراف السعديين إلى دفة الحكم، واقتصاديا بتحول مسار التجارة العالمية بعد الاكتشافات الجغرافية الكبرى.

وقد كان لمؤسسة الفقيه دور كبير في توجيه العامة والخاصة، لأن هذه المؤسسة كانت تلعب دائما دور الفاحص الإيديولوجي لكل المستجدات والمستحدثات[2]،

ومن هنا جاء تناولها لمسألة التبغ التي أثارت ضجة كبرى خلال العهد السعدي وبعده. ومن بين الأسئلة التي يمكن طرحها حول هذا الموضوع:

-كيف دخل التبغ إلى بلاد المغرب؟

-كيف استقبل المغاربة التبغ؟

-ماهي ردود فعل الفقهاء اتجاه استهلاك التبغ؟

-ماهي دوافع السجال الفقهي الذي دار حول مسألة التبغ؟

أولا: التبغ ودخوله إلى المغرب:

1 - ظهور التبغ: يرتبط ظهور التبغ وتدخينه في العالم ككل بالاكتشافات الجغرافية الكبرى، ويعتبر "كريستوف كلومب" أول من تحدث عنه في رحلته التي اكتشف بها أمريكا أواخر القرن الخامس عشر[3]،ونتيجة لذلك حملها البرتغاليون والإسبانيون معهم إلى بلدانهم[4]، والغالب على الظن أن الإنجليز أول من شربوا دخان التبغ على نطاق واسع خلال النصف الثاني من القرن السادس عشر بعد أن تفننوا في صنعه[5]، ثم دخلت إلى إفريقيا السوداء بواسطة الأوربيين، وظهرتبتمبكتوخلال القرن السادس عشر[6].

أما عن تعريف التبغ؛ "فهو نبات معروف عند قدماء الهنود والفرس بأسماء أخرى واستعملوه في مداواة الجراح

---

[1] محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج1، 1976، ص 5.

[2] محمد سبيلا، المغرب في مواجهة الحداثة، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء-المغرب، ط3، دت، ص 62.

[3] حجي، الحركة الفكرية...، مرجع سابق، ص 246.

[4] نفسه.

[5] نفسه.

[6] Jacques Cagnet et SaidNejjar, Le Maroc Saadite à Travers une étude récent.(Mohammed Hajji : "L'activité Intellectuelle Au Maroc Sous Les Saadites"). In HéspéresTamuda, vol xx-xxi, 1982-1983, p 366.

وأغراض طبية متعددة، وعنهم أخذه العرب وذكروه في كتبهم باسم (شجر القمر)"[1].

فيما يخص الاسم، فإن كلمة "التبغ" هي الأكثر انتشارا وتداولا، ومن بين الأسماء الأخرى نجد؛ الطبغ، وطاب، وطابة، والطابق، وطباقو، والطابغة، والتوبغة، والدخان...[2].

كما تجدر الإشارة إلى أن التبغ ليس هو الكيف ولا الحشيشة، فالكيف هو خليط من نبتة القنب الهندي إضافة إلى التبغ، ويستعمل أيضا عن طريق التدخين[3]، أما الحشيشة فهي مسحوق من رؤوس القنب المزهرة، يستهلك عن طريق الابتلاع[4].

2 – دخول التبغ إلى المغرب:

يرتبط ظهور التبغ في المغرب، بانتشار النفوذ المغربي فيما وراء الصحراء من بلاد السودان، وذلك في القرن السادس عشر الميلادي، حيث حمله إليه السودانيون الذين رافقوا الفيلة المبعوث بها إلى مراكش بين سنتي 1597-1598، ثم إلى فاس سنة 1599[5].

وحسب "الوفراني"، فقد تم الإتيان بالفيلة بين سنتي 1592-1593، حيث يقول: "وفي عام واحد وألف [93-1592]، أتي بالفيلة من بلاد السودان للمنصور. وكان يوم دخولها لمراكش يوما مشهودا، برز فيه كل من في المدينة لرؤيتها من رجال ونساء وصبية وشيوخ. ثم في رمضان عام سبعة وألف [1599]، حملت لفاس أيضا. قال بعضهم: وبسبب دخول هذه الفيلة للمغرب، ظهرت هذه العشبة الخبيثة المسماة تبغة، لأن السودان الذين قدموا يسوقون الفيلة، قدموا بها يشربونها، ويزعمون أن فيها منافع. فشاعت عنهم في درعة ومراكش وغيرهما من بقاع المغرب. وتعارضت فيها فتاوى العلماء رضوان الله عليهم، من لدن ظهورها. فمن قائل بالتحريم، ومن قائل بالتحليل، ومتوقف، والعلم فيها عند الله تعالى."[6]

وهذا النص هو الذي أتى به "أحمد بن خالد الناصري" وأثبته في كتابه الاستقصا[7]، إلا أن الباحث"محمد حجي" كان له رأي آخر، فقد اعتمد على التاريخ الذي أورده "البوسعيدي" في مؤلفه بذل المناصحة، وهو سنة 1597-1598، لأنه حسب نفس الباحث، أورده عن مشاهدة[8].

كان إذن لدخول التبغ إلى بلاد المغرب صدى كبيرا لدى عامة الناس، وتصدى الفقهاء لهذه المستحدثة كما هي العادة مع أي مستحدثة جديدة غير مألوفة، فأثارت بذلك موجة من الفتاوى والفتاوى المضادة، مدشنة ما يمكن تسميته ب"حروبا فقهية حول التبغ"[9].

ثانيا: الفقهاء ومسألة التبغ :

1 – ابن أبي محلي وتفجير مسألة التبغ:

ينتمي "ابن أبي محلي" إلى عائلة أولاد القاضي التي اشتهرت بسجلماسة، تعلم القرآن على يد أبيه[10]، ثم انتقل إلى فاس حيث درس في الفترة ما بين 1572-1578، حيث درس علم الآداب والنحو والقراءة والحديث والتصوف، ليدخل بعدها مرحلة الانعزال[11]، في الفترة ما بين 1579-1594[12]، قبل أن يعود إلى الساورةوبدأ العمل على توطيد نفوذه، ويدل على ذلك الرسائل التي يعترف له فيها أصحابها بالقطبانية وبأنه شمس زمانه[13].

اشتهر "ابن أبي محلي" بالثورة التي قادها ضد المولى "زيدان"، وكانت له سجالات فقهية متعددة اتسمت بالعنف والقوة، ومن بين هاته المسائل، مسألة التبغ التي كانت له فيها مساهمة كبيرة ورائدة في النقاش الفقهي

---

[1]حجي ، مرجع سابق، ص 246.

[2]عبد الأحد السبتي وعبد الرحمان لخصاصي، من الشاي إلى الأتاي العادة والتاريخ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية-الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 50، دار أبي رقراق للطباعة والنشر-حسان-الرباط، ط2، 2012، هامش 14 ص 77.

[3]عبد الأحد السبتي وعبد الرحمان لخصاصي، مرجع سابق، ص 297.

[4]نفسه.

[5]حجي، مرجع سابق، ص 246.

[6]محمد الصغير الوفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ص 162، نقلا عن السبتي ولخصاصي، من الشاي إلى الأتاي...،مرجع سابق، ص 77.

[7]أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج5، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب-البيضاء، 1997، ص 126.

[8]حجي، مرجع سابق، هامش 2 ص 246.

[9]سبيلا، المغرب في مواجهة الحداثة، مرجع سابق، ص 60.

[10]عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، منشورات عكاظ، 1991، ص 39.

[11]القدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر...،مرجع سابق، ص ص 41-42.

[12]نفسه، ص 43.

[13]نفسه، ص 45.

الذي دار حولها[1]، ويعتبر من الأوائل الذين أشعلوا "قنبلة التبغ[2]، وذلك بعد رده على شيخه "سالم السنهوري" بكتيب ضمنه تساؤلات عنونه ب "الحكاية الأدبية والرسالة الطبية مع الإشارة الشجرية"[3]، ثم في كتاب "الإصليت الخرتيت بقطع بلعوم العفريت النفريت" حوالي 1610، حيث خصص نصفه الأخير لمعالجة مسألة التبغ[4].

وقد قام "ابن أبي محلي" (Grand Fumeur[5])، بتحلية شرب دخان التبغ، مذكرا بمنافعه الجسمانية والعقلية[6]. وبالتالي كان له الفضل في إثارة هذا النقاش الفقهي حول التبغ.

2-ردود فعل الفقهاء الأولى حول مسألة التبغ:

أ – فقهاء التحريم:

بعد مضي بضع سنوات على ظهور التبغ بالمغرب، انتشر انتشارا واسعا، ولقي قبولا كبيرا في المدن والقرى[7]، وكدليل على الضجة التي خلقها السجال حول مسلة التبغ أنها وصلت إلى مسمع "أحمد المنصور"[8]، هذا الأخير قام باستفتاء العلماء حول المسألة أواسط أكتوبر 1602[9]، فأفتى مفتي فاس "محمد بن قاسم القصار" بتحريمه، وكذلك الفقيه "أحمد بن حسون"، وأقروا بوجوب إتلافه[10]، فأمر "أحمد المنصور" بانتزاعه من الباعة وحرقه[11].

وكان دليلهم على تحريمه أنه "مسكر ومفتر"، انطلاقا من حديث أبي سلمة: "نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن كل مسكر ومفتر"[12].

إلا إنه وبسبب وفاة "أحمد المنصور" والأزمة التي عرفها المغرب بعده، خصوصا صراع أبنائه حول السلطة، انتشر التبغ انتشارا واسعا وخاصة في الصحراء[13].

ولعل أشهر الفتاوى في تحريم دخان التبغ، فتوى إمام المالكية "سالم السنهوري"، وفتوى قاضي تمبكتو"ابن عبد الرحمان السوداني"[14]، في حين ألف "ابراهيماللقاني المصري"كتيبا أسماه "نصيحة الإخوان باجتناب الدخان" وذلك أوائل سنة 1616، وقد كان رده على تحليل شرب الدخان من قبل "ابن أبي محلي" قويا، حيث كتب: "...ففي أول شيوعه-الدخان- بمصر دخل به رجل من تفيلالت من بلاد المغرب يقال له أحمد بن عبد الله الخارجي-ابن أبي محلي- المشهور بسفك الدماء بغير حق، وإهانة أهل بيت الرسول من أشراف ملوك المغرب. وكان ملبسا على العامة يزعم أنه من العارفين وأهل السلوك وهو مغرور مخدوع...فسأل عنه – الدخان – شيخنا وقدوتنا العلامة سالم السنهوري فأفتاه بالتحريم فأسر ذلك في نفسه وألقى إلى شياطين إخوانه أن ما أفتى به الشيخ خطأ، وأنه جائز الاستعمال وهو من أحل الحلال، فعليه بالوبال وأليم النكال."[15]

ب – فقهاءالتحليل:

إن أهم ملاحظة يمكن الوقوف عليها عند جرد الفقهاء الذين أفتوا بتحليل شرب الدخان، أنهم كانوا من المدمنين عليه، ومن بينهم "أحمد بن محمد البوسعيدي" وهو قاضي درعةزمنئذ[16]، وقد قام هذا الأخير بالاستناد إلى القرآن الكريم لتحليل التبغ بإيراده للآية التالية: "وهو الذي خلق لكم ما في الأرض جميعا"،وبما أن التبغ نبتة من نبات الأرض فهي حلال[17]، هذا من جهة، ومن جهة أخرى فقد حرم أكله وحلل تدخينه حيث يقول "وكذلك الحرمل أكله مدقوقا قتال. ومع ذلك أمر النبي صللى الله عليه

---

[1] سعيد واحيحي، مهدوية ابن أبي محلي الفيلالي ومخطوطه "تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة"، الرباط نت: ط1، 2009، ص 24.

[2] واحيحي، مهدوية ابن أبي محلي...، مرجع سابق، ص ص 24-25.

[3] Jacques Cagnet et SaidNejjar, Le Maroc Saadite à Travers une étude récent…,Op-Cit, p 366.

[4] سبيلا، مرجع سابق، ص 62.

[5] Jacques Cagnet et SaidNejjar, Op-Cit, p 366.

[6] واحيحي، مرجع سابق، ص 25.

[7] حجي، مرجع سابق، ص 247.

[8] نفسه.

[9] نفسه.

[10] نفسه.

[11] نفسه.

[12] سبيلا، مرجع سابق، ص 63.

[13] حجي، مرجع سابق، ص 247.

[14] نفسه، ص61.

[15] حجي، مرجع سابق، ص 255.

[16] نفسه، ص 248.

[17] نفسه.

وسلم بالتبخير بالحرمل لأن دخانه لا ضرر فيه وفيه منفعة. وتبغ بهذا السبيل أكلها حرام لأنه قتال، ودخانها فيه منافع ظاهرة بدليل العيان"[1]، ليبدأ بعد هذا في عد منافع التبغ بقوله "إنها تهضم الطعام وهو من أعظم المنافع" حسب زعمه، وأنها تشافي من السموم ولسعات العقارب والحيات[2]، ومنها كذلك شفاء مرض "الترويحة" ويقصد بها نزلة البرد[3].

وقد نفا "البوسعيدي" أن يكون التبغ مسكرا أومفترا، وهاجم القائل بذلك، حيث يقول " وأما انتفاء وصف السكر والفساد والرقاد عنه فأمر ضروري لا يمتري فيه عاقل، ومن أنكره فهو سفسطائي ومكالمته لا تفيد"[4].

وبنوع من السخرية أجاب بعض المحرمين لشرب دخان التبع لكونه يجتمعون على شربه وقد تكون معهم النساء، وشبهوا الأمر بالخمر، حيث قال: "وهاهم يجتمعون على (طواجين) اللحم وغيرها من نعم الله عز وجل. أيصح لنا أن نقول بحرمة (الطواجين) من أجل ذلك؟"[5].

كما رد على من حور كلمة "الطباق" وجعلها مرادفة للتبغ - لاستغلال كتب المالكية القائلة بأنه "لا تصح شهادة من استعمل الطباق"[6] – بقصة حدثت له مع أحد الفقهاء : "...أتاني بعد ذلك شخص لا أعرفه إلا أنه ظهر لي بعد ذلك أنه فقيه، فقال لي: قيل عنك أنك تشرب دخان تبغ، هل هو صحيح؟ فقلت له نعم نشربها. فقال لي: ها نحن وجدنا نصا عند الجزولي أن من استعمل الطباق فلا تجوز شهادته ولا إمامته. فقلت له: وما معنى الطباق؟ فقال: هو تبغ ! فقلت له: هيهات ! أنت نقلت عن الصحف من غير اعتماد على شيخ. إنما الطباق هو الحكم الذي أمر به النبي صلى الله عليه وسلم في أول الإسلام، وذلك بأنه أنر أن المصلي في حالة الركوع يطبق كفيه إحداهما على الأخرى ويجعلهما بين فخذيه، ثم بعد ذلك نسخ وأمر أن تجعل الأيدي على الركب؟ وتمسك ابن مسعود بالحكم الأول لأنه لم يصح عنده النسخ. فمن أخذ بمذهب ابن مسعود بطل ركوعه، وإذا بطل ركوعه بطلت صلاته فيصير تارك الصلاة معني، وتارك الصلاة لا تجوز شهادته...فقال لي: ومن فسر بهذا؟ فقلت له: القاضي عياض في مشارقه في مادة طبق. فذهب عني، وفي الغد جاءني فسلم ودعا لي بخير وانصرف..."[7].

كما قام "البوسعيدي" بتصحيح فتوى "سالم السنهوري"، حيث اعتبر أن هذا الأخير بنى حكمه على السؤال الذي وجه إليه، حيث أن السائل أخبره بأنه يغيب العقل[8].

وختم "البوسعيدي" فتواه بأسلوب ساخر، يبين مدى تعلقه الكبير بتدخين التبغ، فحاول نهج شتى السبل لتحليله، وساق أمثلة من شتى المجالات لذلك، منها قوله: "...وهل رأيتم سيدي أو سمعتم أن شارب تبغ يتقلد سيفه ويعربد على الناس، أو شربها واختلط عقله واختل كلامه أو مشيه؟ وقد حكي عن أبي بكر ابن الإمام داوود الظاهري أنه لما توفي والده وتولى الجلوس بحلقته استصغروه فدسوا إليه رجلا يسأله عن حد السكر ومتى يكون الإنسان سكران. فقال : إذا عزبت عنه الهموم، وباح بسره المكتوم، واختل كلامه المنظوم، ومشيه المعلوم. فأقروا له بالعلم ! وهذه العلامات كلها منتفية من تبغ..."[9].

ومن بين المدمنين أيضا على التبغ وقاموا بتحليل شرب دخانه، نجد "أحمد بابا السوداني"[10]، الذي صاغ فتواه في كتيب عنونه ب"اللمغ في الإشارة إلى حكم طبغ" وذلك سنة 1607[11]، ومن بين أدلته على ذلك قول "ابن عسكر" في كتاب "العمدة": "والنباتات كلها مباحة إلا ما فيه ضرر أو يغطي العقل كالبنج ونحوه...ومعلوم أن طابة المذكورة لا تغطي العقل، ومنفعتها معلومة كما سيأتي"[12].

وقد قام "أحمد بابا" بالرد على المفتي السوداني القائل بتحريم تدخين التبغ بنفس طريقة "البوسعيدي" ألا وهي طريقة العنف والسخرية، والانتقاص من قيمته العلمية، حيث اعتبر أن هذا المفتي تعاطى لما ليس له به علم وبالتالي وجب عدم الالتفات إليه، ووصف كلامه بالساقط

---

[1] نفسه، ص 249.
[2] نفسه.
[3] نفسه.
[4] نفسه.
[5] نفسه.
[6] نفسه.
[7] حجي،مرجع سابق، ص ص 249-250.
[8] نفسه، ص 250.
[9] نفسه.
[10] نفسه، ص 251.
[11] نفسه.
[12] نفسه، ص 252.

واللاغط[1] واعتبره غير أهل للفتوى بقوله: "وأيضا فالحديث لا يستدل به إلا من هو أهل لذلك ممن هو مجتهد دون غيره. وإنما حظ المقلد الفتوى بكلام شيوخ مذهبه ومشهوره، والإجراء عليه إن تأهل لذلك. فإن خرج عن ذلك فقد تعدى وظلم، وباء بإثم عظيم...لأن الاستدلال بالحديث يحتاج إلى معرفة أنه غير منسوخ وغير مخصص بآخر، وغير معارض بدليل آخر يقدم عليه، ومعرفة وجوه الترجيح عند التعارض...وأنى ذلك للمقلد الصرف، من هو في معرفة ما ذكر كالجلف..."[2].

ج – فقهاء الحل الوسط:

يعتبر "الأجهوري"من الفقهاء المصريين الذين شاركوا في الحرب الفقهية حول التبغ، وألف في ذلك كتابه "غاية التبيان لحل شرب ما لا يغيب العقل من الدخان"[3]، وكان هو أيضا من المدمنين على شرب دخان التبغ، إلا أن رأيه اتصف بالليونة وأخذ موقعا وسطا بين المحرمين والمحللين، ويستشف ذلك من خلال ما كتبه في خاتمة مؤلفه السالف الذكر، حيث كتب: "...شرب الدخان المذكور ليس مما يغيب العقل أصلا وليس بنجس، وما كان كذلك لا يحرم استعماله لذاته، بل لما يعرض له من ضرر ونحوه. فمن لم يضره لم يحرم عليه، ومن ضره بأخبار عارف يوثق به أو بتجربة في نفسه حرم عليه. وقد جرى الخلاف في الأشياء التي لم يرد في الشرع حكمها، والمرجح منه تحريم المضار دون غيرها. وأنت خبير بما يحصل منه لبعض مبتدئي شربها من الفتور، كما يحصل لمن ينزل في الماء الحار، أو كمن يشرب مسهلا مما لا يغيب العقل في شيء كما يظنه من لا معرفة له. وإن سلم أنه يغيب العقل فليس من المسكر قطعا، لأنه مع نشوة وفرح كما تقرر. وحينئذ فيجوز استعماله لمن لا يغيب عقله كاستعمال الأفيون لمن لا يغيب عقله. وهذا يختلف باختلاف الأمزجة والقلة والكثرة...فلا يسع عاقلا أن يقول إنه حرام لذاته مطلقا إلا إذا كان جاهلا بكلام أهل المذهب أو مكابرا معاندا."[4]

نرى أن "الأجهوري" من خلال ما كتب جعل أمر التحليل والتحريم يعود إلى صاحب التجربة، إلا أنه استبعد تحريمها لغياب نص شرعي صريح في الأمر، كما ساق هو الآخر نماذج من الحياة اليومية للاستدلال بها على رأيه.

ثالثا: مواقف الفقهاء بعد تفشي شرب التبغ في المجتمع:

1 – فتاوى فقهاء فاس:

نظرا لانتشار عادة التدخين بمدينة فاس، وإقبال التجار على استيرادها خصوصا خلال سنوات 1617-1618[5]، مستغلين بذلك الوضع غير المستقر للدولة السعدية، فتصدى الفقهاء لهذه الظاهرة بوصفهم حماة الدين داخل المجتمع، وذلك عبر أديب الفقهاء "علي بن أحمد الشامي"، بحيث وجه سؤالا إلى قاضي فاس "أبي القاسم ابن أبي النعيم الغساني" ومفتي فاس "أحمد المقري"، يسنكر فيه تفشي الظاهرة داخل المدينة[6].

حصل "علي ابن أحمد الشامي" على مراده، حيث أجابه القاضي والمفتي بالتحريم، إضافة إلى سبعة عشر فقيها، وجمعت هذه الفتاوى في كتاب حمل عنوان " فتاوى علماء فاس في الدخان"[7]، إلا أنها لم تحمل أي جديد على ما سبقها من فتاوى المحرمين لشرب وتجارة التبغ، وقد حاول هؤلاء إعطاء هذه الفتاوى صبغة رسمية عبر تحريرها بوجود شهود من العدليين[8]، ويبدو أن هذه الحركة لم تلق الترحيب من مدمني التدخين، وبالتالي لم تنجح، وانتهى الأمر باغتيال القاضي "ابن أبي النعيم"[9].

2 - فتوى "محمد العربي الفاسي":

ألف هذا الأخير كتابا عنونه ب"سهم الإصابة في حكم طابة"، وكان ذلك سنة 1625[10]، وقد وعى الفقيه بأن عليه إيجاد وسيلة جديدة للتصدي للظاهرة، خصوصا أن الانقسام الحاصل بين الفقهاء شجعت العامة على التعاطي أكثر للتبغ[11]، حيث أورد مواقف المحرمين وحللها على ضوء الشريعة، ونفس الأمر بالنسبة لفتاوى المحللين، حيث انتقد على المحرمين اعتمادهم على أحاديث ضعيفة، كما عاب على المحرمين تشبيهاتهم واستعاراتهم

---

[1] نفسه، ص 253.

[2] نفسه.

[3] نفسه، 256.

[4] حجي، مرجع ستبق، ص 256.

[5] نفسه، ص 259.

[6] نفسه.

[7] نفسه، ص 260.

[8] نفسه.

[9] نفسه، ص 261.

[10] نفسه.

[11] نفسه.

التي يوردونها في غير محلها، ووسم هؤلاء بالكذب على الله ورسوله[1].

ولم يخرج "محمد العربي الفاسي" بحكم مباشر في الأمر، حيث ترك الأمر مفتوحا للسجال والمناقشة[2]، حيث تلقى أجوبة من مجموعة من الفقهاء، فهناك من عاب عليه تحيزه لصالح فقهاء التحريم، ومن بينهم عمه "عبد الرحمان بن محمد الفاسي"، أما القاضي "ابراهيم بن عبد الرحمان الكلالي" فقد عاب عليه عدم اتخاذ موقف حاسم في الأمر ووصفه بالمقلد لا المجتهد، ليختم جوابه بقوله: "ولو كان يباح لي أن أقول بالرأي لقلت فيها أنها محرمة وقطعت به"، ومنهم من وقف أمام ما جاء به دون أن يزيد أو ينقص في ذلك[3].

وعليه؛ يمكننا القول إن "محمد العربي الفاسي" قد أعاد إحياء السجال الفقهي الدائر حول مسألة التبغ، لكن بأسلوب جديد يهدف إلى عدم التسرع في إعطاء الأحكام، هذا الأمر يدل على الأهمية التي حظي بها موضوع التبغ من جهة، ومن جهة أخرى يدل على الخطورة التي وصلت إليها مسألة التبغ، لأن تريث "محمد العربي الفاسي" قد يعزى إلى خوفه من الاغتيال كما حدث لقاضي فاس.

3 – فتوى "أحمد بن علي البوسعيدي":

ألف هو الآخر كتابا خصص فصلا منه لمسألة التبغ حوالي سنة 1673، عنونه ب"بذل المناصحة في فعل المصافحة"[4]، والملاحظ أن "أحمد بن علي البوسعيدي" نحى منحى التحريم منذ البداية، وراح يبحث عن الأدلة الشرعية القمينة بتعزيز موقفه، والاستدلال بمجموعة من شيوخه في الأمر كالمجاهد "عبد الله ابن سعيد الحاحي"الذي قال حسب ما يروي "البوسعيدي": "ذلك الويل حرام لا يتناوله إلا الجاهلون..."[5]، والملاحظ أيضا أنه ورغم موقفه المحرم للتبغ، فإنه هو الآخر كان معتدلا، ولم يكن كموقف المحللين الأوائل، الذين اتسم ردهم بالعنف أحيانا، والسب والشتم أحيانا أخرى، وهذا الأمر نستشفه من خاتمة كتابه التي نورد منها النص الآتي: "فيجب حينئذ على الإمام...أن يجمع أهل التجارب ومن حكمه ممارسة المنافع والمضار مباشرة وامتحان خواص الأشياء مناولة ومسايرة من النبات والمعدن، من العلماء والأطباء الأذكياء من أهل القرآن ومن أهل الكتابين إذا كانوا يصدقون، فيسألهم عن هذا الدخان، فإن اتفق نظرهم على أن فيه فائدة مهمة عامة لجميع الأشخاص في جميع الأوقات...وإذا تواطأ رأي المخبرين في الدخان بعدم المنفعة فحينئذ، يحكم الفقيه بالتحريم فمن يشير بعد ذلك إلى الإباحة فذلك من عدم الإنصاف...وإذا اجتمع رأي الملأ المذكور على وجود الفائدة فيه حكم الفقيه بالحلية...فيجتهد الحاكم إذا ثبت الحكم الأول بما يرى لإزالته- الدخان- بالضرب والسجن"[6].

4 – فتوى "عبد الرحمان التمنارتي":

تعرض "التمنارتي" في مؤلفه "الفوائد الجمة" هو الآخر لمسألة التبغ، وأورد مجموعة من الفتاوي لفقهاء سوس ودرعة والسودان، وكان واضحا متصلبا لموقفه ألا وهو تحريم التبغ، حيث اعتبره خبيثا غير طاهر، وأيضا اعتبرها من المسكرات[7]، إلا أن الأدلة التي اسند إليها كانت ضعيفة، وبالتالي لم يلتفت إليها أحد[8].

رابعا: أبعاد الصراع الفقهي حول مسألة التبغ:

1 –الصراع الفكري بين المشرق والمغرب:

ظل المغرب منذ الفتوحات الإسلامية مرتبطا بالشرق دينيا، بل أن كل ما يحدث في المشرق يجد له انعكاس وصدى بالمغرب، ومن ذلك الصراعات المذهبية والفقهية، وحتى علماء المغرب كانوا يرحلون إلى المشرق لاكتساب العلم، والدراسة على يد شيوخه.

إلا أن الحوار الذي فتحه "ابن أبي محلي" مع علماء الشرق، كسر قاعدة التبعية للمشرق، ونجد أن فقهاء المغرب لم يكتفوا بالتقليد والتطبيق كما جرت العادة، بل فتحوا باب الاجتهاد، والمتمعن في هذا الحوار الذي وصل حد الجدل، يقتنع بأن الأمر تجاوز الاستفسار والاسترشاد إلى درجة الاجتهاد[9] والتصحيح كما رأينا مع قاضي درعة "أحمد بن محمد البوسعيدي"[10].

---

[1] حجي،مرجع سابق، ص 262.
[2] نفسه، ص 263.
[3] نفسه.
[4] نفسه، ص 264.
[5] نفسه.
[6] نفسه، ص 265.
[7] حجي،مرجع سابق، ص 266.
[8] نفسه.
[9] عبد المجيد القدوري، **"شخصية ابن أبى محلي ورحلته"**، مجلة دار النيابة، ع5، 1985، ص 36.
[10] حجي، مرجع سابق، ص 250.

وبعد مضي سنوات عديدة على السجال الذي فتحه "ابن أبي محلي" مع فقهاء المشرق، كتب عدد من أعلام المالكية في مصر والمغرب الأوسط كتبا حول مسألة التبغ، لكن في مجملها لم تكن تتجاوز ما كتبه المغاربة في الأمر، إن لم نقل أنها نقلت عنهم سواء بالنسبة للمحللين أو للمحرمين[1].

2 – الصراع بين فقهاء الشمال وفقهاء الجنوب:

من خلال تتبعنا لأطوار هذا الصراع من خلال ما استطعنا الوصول إليه من مراجع، نسجل الملاحظات الآتية:

الملاحظة الأولى، هي أنه على غير العادة، سؤال النازلة يكون من العامة، والمفتي جوابه لا يرد، ولكن مسألة التبغ اتخذت بعدا آخر، وأصبح الصراع بين الفقهاء على أشده، ووصل الاختلاف بينهم حد السب والشتم كما جاء سالفا، بمعنى أنه كان يؤشر على حرب فقهية داخل المغرب، قد نعتبرها استمرارا للتحول الذي عرفه العهد السعدي الأخير بالخصوص حول علاقة التصوف بالسلطة، خصوصا إذا ما أخذنا بعين الاعتبار شخصية "ابن أبي محلي " الثائر والهادف إلى الوصول إلى السلطة بنهج شتى الأساليب، ومنها الدعاية لنفسه، ولعل إثارة هذا الموضوع من قبله تدخل في هذا الباب.

الملاحظة الثانية، هي الصراع بين فقهاء فاس الذين حرم أغلبهم مسألة التبغ، وفقهاء الجنوب خصوصا درعة وتافيلالت والساورة، الذين حللوا مسألة التبغ، ولعل هذا الاختلاف القوي في وجهات النظر بين الشمال والجنوب هو تكريس للصراع الذي ظهر بين فقهاء الشمال وفقهاء الجنوب بشأن قيام الدولة السعدية، وأيضا لذلك التنافر بين الحاضرة والبادية خلال هذه الفترة.

خاتمة:

إن غياب نص ديني صريح في مسألة التبغ، هو السبب الرئيسي في تأرجح الفقهاء بين محلل ومحرم[2] ومتوقف، لأن الدخان لم يكن معروفا في صدر الإسلام[3]، وبالتالي تم الاحتكام إلى الاجتهاد بين معدد لمنافعه وملمع إلى مضاره، وهذا الاختلاف الفكري المطبوع بثقافة عصره والمتأثر بالصراعات السياسية بين الفقهاء، أثر على تعاطي المغاربة لهذه النبتة بشكل واسع، بل إن الفقهاء أصبحوا من أكبر المدمنين عليها، وبالتالي نصبوا أنفسهم للدفاع عنها.

"وهكذا شغل رجال الفكر في المغرب بمسألة التدخين عقودا عديدة من السنين باعتبارها مشكلا دينيا واجتماعيا وسياسيا، وألفوا فيها نحو ثلاثين كتابا فضلا عن عشرات الفتاوى والأجوبة والمناظرات، فنصحوا وفتحوا عيونا وعقولا ولو أنهم لم يتمكنوا من إيقاف تيار التدخين الجارف."[4]



[1] نفسه، ص 254.

[2] سبيلا، مرجع سابق، ص 63.

[3] نفسه.

[4] حجي، مرجع سابق، ص 266.

الهوامش:

1) محمد حجي، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج1، 1976، ص 5.
2) محمد سبيلا، المغرب في مواجهة الحداثة، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء-المغرب، ط3، دت، ص 62.
3) حجي، الحركة الفكرية...، مرجع سابق، ص 246.
4) نفسه.
5) نفسه.
6) Jacques Cagnet et Said Nejjar, "**Le MarocSaadite à Travers uneétuderécent.(Mohammed Hajji "L'activitéIntellectuelle Au Maroc Sous Les Saadites")**", In HéspéresTamuda, vol xx-xxi, 1982-1983, p 366.
7) حجي ، مرجع سابق، ص 246.
8) عبد الأحد السبتي وعبد الرحمان لخصاصي، من الشاي إلى الأتاي العادة والتاريخ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية-الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 50، دار أبي رقراق للطباعة والنشر-حسان-الرباط، ط2، 2012، هامش 14 ص 77.
9) عبد الأحد السبتي وعبد الرحمان لخصاصي، مرجع سابق، ص 297.
10) نفسه.
11) حجي، مرجع سابق، ص 246.
12) محمد الصغير الوفراني، نزهة الحادي بأخبار ملوك القرن الحادي، ص 162، نقلا عن السبتي ولخصاصي، من الشاي إلى الأتاي...،مرجع سابق، ص 77.
13) أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج5، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب-البيضاء، 1997، ص 126.
14) حجي، مرجع سابق، هامش 2 ص 246.
15) سبيلا، المغرب في مواجهة الحداثة، مرجع سابق، ص 60.
16) عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، منشورات عكاظ، 1991، ص 39.
17) القدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر...،مرجع سابق، ص ص 41-42.
18) نفسه، ص 43.
19) نفسه، ص 45.
20) سعيد واحيحي، مهدوية ابن أبي محلي الفيلالي ومخطوطه "تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة"، الرباط نت: ط1، 2009، ص 24.
21)واحيحي، مهدوية ابن أبي محلي...، مرجع سابق، ص ص 24-25.
22) Jacques CagnetetSaidNejjar, Le Maroc Saadite à Travers une étude récent…, Op-Cit, p 366.
23) سبيلا، مرجع سابق، ص 62.
24) Jacques Cagnet et SaidNejjar, Op-Cit, p 366.
25) واحيحي، مرجع سابق، ص 25.
26) حجي، مرجع سابق، ص 247.
27) نفسه.
28) نفسه.
29) حجي، مرجع سابق، ص 247.
30) نفسه.
31) سبيلا، مرجع سابق، ص 63.
32) حجي، مرجع سابق، ص 247.
33) سبيلا، مرجع سابق، ص61.

34) حجي، مرجع سابق، ص 255.
35) نفسه، ص 248.
36) حجي، مرجع سابق، ص 248.
37) نفسه، ص 249.
38) نفسه.
39) نفسه.
40) نفسه.
41) نفسه.
42)نفسه.
43) حجي، مرجع سابق، ص ص 249-250.
44) نفسه، ص 250.
45) نفسه.
46) نفسه، ص 251.
47) نفسه.
48) نفسه، ص 252.
49) نفسه، ص 253.
50) حجي، مرجع سابق، ص 253.
51) نفسه، 256.
52) نفسه.
53) حجي، مرجع سابق، ص 259.
54) نفسه.
55) نفسه، ص 260.
56) نفسه.
57) نفسه، ص 261.
58) نفسه.
59) نفسه.
60) نفسه، ص 262.
61) حجي، مرجع سابق، ص 263.
62)نفسه.
63) نفسه، ص 264.
64) نفسه.
65) حجي، مرجع سابق، ص 265.
66) نفسه، ص 266.
67) نفسه.
68) عبد المجيد القدوري، **"شخصية ابن أبي محلي ورحلته"**، مجلة دار النيابة، ع5، 1985، ص 36.
69)حجي، مرجع سابق، ص 250.
70) نفسه، ص 254.
71) سبيلا، مرجع سابق، ص 63.
72) نفسه.
73) حجي، مرجع سابق، ص 266.

مراجع:

حجي محمد، الحركة الفكرية بالمغرب في عهد السعديين، ج1، 1976.

السبتي عبد الأحد و لخصاصي عبد الرحمان ، من الشاي إلى الأتاي العادة والتاريخ، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية-الرباط، سلسلة بحوث ودراسات رقم 50، دار أبي رقراق للطباعة والنشر-حسان-الرباط، ط2، 2012.

سبيلا محمد، المغرب في مواجهة الحداثة، منشورات الزمن، مطبعة النجاح الجديدة الدار البيضاء-المغرب، ط3، دت.

القدوري عبد المجيد، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصليت الخريت، منشورات عكاظ، 1991.

الناصري أحمد بن خالد ، الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج5، تحقيق وتعليق جعفر الناصري ومحمد الناصري، دار الكتاب-البيضاء، 1997.

واحيحي سعيد، مهدوية ابن أبي محلي الفيلالي ومخطوطه "تقييد في التعريف بمدينة سجلماسة"، الرباط نت: ط1، 2009.

مقالات:

القدوري عبد المجيد، **"شخصية ابن أبي محلي ورحلته"**، مجلة دار النيابة، ع5، 1985، ص ص 33-37.

Le Maroc Saadite à Travers une étude récent.(Mohammed Hajji "Jacques Cagnet et SaidNejjar, . In HéspéresTamuda, vol xx-xxi, 1982-" **"L'activité Intellectuelle Au Maroc Sous Les Saadites"):** 1983. PP 349-372.



صناعة السكر في العهد السعدي

عزالدين شعوب
باحث في تاريخ المغرب



تقـديم:

عـرف المغـرب خـلال القـرن 16م، محـاولات متعـددة، للـدخول الى الأزمنـة الحديثـة، في عـدد مـن المجـالات. قـادت هـذه المحـاولات الاسرة السـعدية التي كانـت تسـعى لإرسـاء دولـة مقومـات جديـدة تواكـب التحولات العالمية، وتختلف كليا عن نماذج الـدول المغربيـة السابقة لها. للوصول الى هذه الغاية، كان على حكام هـذه الاسرة، بنـاء اقتصـاد قـوي، يـتماشى و مـا شـهده الاقتصـاد العالمي من تحولات، خلال هذا القرن. كتراجـع دور تجـارة القوافل، وتحول الثقل الاقتصادي، من حوض البحر الابيض المتوسط، الى المحيط الاطلنتـي بعـد الكشـوفات الجغرافيـة التي غيرت وجه العالم. وانطلاقا مـن هـذه العوامـل حـاول السعديون خلق قطاعات اقتصـادية جديـدة، يكـون عليهـا اقبال كبير، وتحقق عائدات مالية تمكنهم مـن بنـاء دولـة حديثـة. فكانـت صـناعة السـكر[1] بمثابـة مفتـاح انخـراط السـعديين في الاقتصـاد العـالمي، عـلى حـد تعبـير روبـير روزنبيرجي. إذ جعلوا منها "صناعة استراتيجية" وذلك عـبر توسيع مجـالات زراعـة قصـبها، وبنـاء عـدد مـن المصـانع لاستخراج وتحضير اجود انـواع السـكر، الـذي عرفـه العـالم خلال القرن 16م. فـما كـان الا ان أصـبحت البضـاعة الاولى التـي يسـعى اليهـا التجـار الاوربيـون. فحقـق مـن خلالهـا المخـــزن الســـعدي، مكاســـب اقتصـــادية، وسياســـية، وديبلوماسـية، وظهـر المغـرب مـن خلالهـا بمظهـر الـدول المتقدمة صناعيا وتجاريا.

1-تطور صناعة السكر:

عرفـت الأحـوال الاقتصـادية بـالمغرب خـلال القـرن الخامس عشر وبداية القرن السادس عشر، تحسنا وذلك في مجموعة من القطاعات وخاصة في النشاط الفلاحـي الـذي برزت فيه زراعة قصب السـكر- واسـتخراج مـادة السـكر- كقطـاع اقتصـادي رائـد عـزز مـداخيل بيـت مـال الدولـة السعدية في زمن كانت فيه الأزمة السياسية بارزة في هـذه الفترة من تاريخ المغرب[2].

ويعود الفضـل الى الدولـة السـعدية في توسـيع مجـال زراعة قصب السكر، وإنشاء معـاصره خـلال القـرن 16م[3]. فقد أدرك سلاطين هذه الدولة الأهمية الاقتصادية لقصـب السكر وصناعته[4] نظرا لعائداته المهمة التي تـم اسـتغلالها

---

[1] يعرف السكر على انه مادة متبلرة حلوة المذاق، تنتجها معظم النباتات من ثنائي اوكسيد الكربون الذي في الهواء فالمادة الخضراء في ورق النبات يمكنها بمساعدة ضوء الشمس ان تجعل ثنائي اكسيد الكربون يتحد مع الماء ويكون السكر الذي هو مادة تستخرج صناعيا من بعض النباتات السكرية واهمها الشمندر وقصب السكر. أنظر: عبد الاحد السبتي، عبد الرحمان الخصاصي، **من الشاي الى أتاي، العادة والتاريخ**، منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط، ودار ابي رقراق للطباعة والنشر، 2012. صص 440-441.

[2] - مجموعة باحثين، إشراف وتقديم محمد القبيلي، **موجز تاريخ المغرب**، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2015. ص 191.

[3] - عثمان المنصوري، **التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر، مساهمة في التاريخ الاقتصادي**، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، ط1، 2012. صص 19-20.

[4] - حليمة بنكرعي، **مداخيل بيت مال المغرب في عهد السعديين 1548 – 1661م**، ط1، مكتبة دار السلام، 2006. ص 45. توفيق لقبايبي، «الاهمية الاقتصادية لمادة السكر السعدي»، **أمل: التاريخ، الثقافة، المجتمع**، العدد 44، 2015. ص47

في الحصول على الأسلحة النارية التي غلبت كفة السعديين على منافسيهم حيث يعتبر محمد المهناوي أن السلاح الناري كان أساسيا في قيام الدولة السعدية اذ يقول "**اذا كانت الدولة بالمغرب الوسيط لا تقوم إلا بالعصبية والمال فإن قيام الدولة بمغرب القرن 16م لم يكن ممكنا الا بتوفر المال والسلاح الناري**"(1).وهو ما جعل هذه الصناعة تعرف تطورا كبيرا، فإذا كان الحسن الوزان يخبرنا في بداية هذا القرن أن "**سكر** (في مدينة تيوت) **أسود لجهلهم طبخه وتصفيته**"(2)، فإن عدد معاصر قصب السكر وصل عند مطلع القرن الموالي ستة عشرـ معصرة(3).ويظهر من خلال هذا أن صناعة السكر عرفت تطورا سريعا خلال مدة وجيزة. فكيف ذلك

تعود جدور اهتمام السعديين بصناعة السكر الى عهد أحمد الاعرج (1517-1544)، الذي باشر سياسة التعامل مع الاجانب منذ الأيام الأولى لتوليته، إذ أبرم مع جماعة من التجار القشتاليين اتفاقا يقضيء باحتكار سكر سوس مقابل مبلغ هام من المال يقدر بستمائة الف كروز أدوس(4). فيما عمل محمد الشيخ على تطوير هذه الصناعة عبر نشر مزارع شاسعة حول مدينة تارودانت منذ استقراره بها سنة 1516(5). كما انشأ مجموعة من المصانع(6) التي بدأت في العمل في عهده، في حين استعان بخبرة اليهود وبعض أسرى سانتاكروز بعد أن استعادها سنة 1541(7). ومن نتائج تطور وازدهار صناعة السكر في هذه الفترة في أنها ساهمت في ظهور قرى ومدن ارتبطت بهذا النشاط الاقتصادي، إذ تعد مدينة كارض (GARED)، التي أسسها عبد الله الغالب(1557-1574) مثالا على ذلك. وكان الغرض منها هو توفير الحماية لمصانع استخراج السكر وسكن العاملين بها8 "**مدينة اسسها الشريف عبد الله الحاكم حاليا (...) شيدت هذه المدينةلحماية هذه الطواحين(...) ويقيم عادة بالمدينة وعامل مع ثلاثمائة فارس يسكنون في القرى المجاورة**"(9). أما في عهد أحمد المنصور فقد أصبح السكر تجارة تسويقية موجهة للخارج بالأساس ويعود الفضل في ذلك للمنصور الذي تميزت فترة حكمه بنوع من الاستقرار النسبي(10)حيث يصف "دي صالدانيا" هذه فترة بقوله "**بلغت بلاد البربر درجة من العظمة لم يسبقها نظير ذلك بما عم بلاد البربر من سلم وسكينة**"(11).كان من أبرز النتائج التي ترتبت عن هذا الاستقرار ازدهار الاقتصاد السعدي عامة، وصناعة قصب السكر بشكل خاص. فكثر الطلب على السكر "**الذي يقتني التجار كل ما ينتج منه بضعف ثمنه**"(12) واتسعت مزارع قصب السكر وتزايد عدد مصانعه(13) "**وكان له [أي المنصور]عند وفاته ثماني عشرة معصرة من ذلك يشتغل في كل واحدة منها ما لا يقل على ألفي عامل**".(14)فيما يصف

1-محمد المهناوي، «دور التجارة الاوروبية في تعزيز الهياكل السياسية بمغرب القرن السادس عشر من خلال نموذج السلاح الناري»، **ضمن أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب**، الجزء الثاني، كلية الآداب والعلوم الانسانية عين الشق، الدار البيضاء، 1989. ص177.

2- الحسن الوزان، **وصف افريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد الاخضر غزال، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983. ص 119.

3- المنصوري، المرجع السابق، صص 19-20. بينما يجعلها دي صالدانيا ثمانية عشر، صص 76-77.

4 عبد الكريم كريم، **المغرب في عهد الدولة السعدية، دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف الظواهر الحضرية،** ط 3، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 2006. ص 45.

5- حليمة بنكرعي، م س، ص 45.

6- تتألف مصانع السكر في العهد السعدي من ثلاثة أقسام، الأول يحتوي على مسقط للماء بعلو 10 امتار وفتحة العجلة المائية وقناة التسريب والصهريج. القسم الثاني وهو قاعة الآليات يضم الارحية وقنوات تسريب وتجميع العصارة. أما القسم الثالث فهو قاعة الطبخ وبه الافران والمراجل والاجفان والانية الفخارية.

7- توفيق لقبايبي، م س، ص 53.

8- للاصفية العمراني، عائشة كنتوري، «زراعة قصب السكر من خلال نصوص تاريخية: ق 10- 16م»، **أمل: التاريخ، الثقافة، المجتمع**، العدد 43، 2014. ص74.

9- مرمول كربخال، نقلا عن للاصفية العمراني، عائشة كنتوري، مرجع سابق، ص 74.

10- عبد المجيد القدوري، **المغرب وأروبا ما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر(مسألة التجاوز)**،المركز التقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، 2012. ص205.

11أنطونيو دي صالدانيا، **أخبار احمد المنصور ملك المغرب،** تقديم وترجمة وتحقيق ابراهيم بوطالب، عثمان المنصوري، لطفي بوشنتوف، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، بدون تاريخ. ص 102.

12- نفسه.

13- تجدر الاشارة الى أن مصانع السكر تعرضت للتخريب خلال الصراع الذي دار بين كل من المتوكل وعبد الملك والمنصور، مما اضطر معه المنصور الى اعادة بناء مجموعة منها.

14- دي صالدانيا، مرجع سابق، ص76.

الفشتالي هذه المصانع بنوع من الانبهار والاعجاب "**معاصر السكر الجاثمة حولها جثوم أهرام مصرـ يتقاصر عن تشييدها أولوا القوة من عاد وثمود الذين جابو الصخر بالوادي ما شئت توطيد وتشييد وبرك مستبحرة وجفان كالجواب وتدور راسيات وحركات هندسية**"[1].

انطلاقا مما سبق، يتضح أن السلاطين السعديين كان لهم اهتمام كبير بهذه الصناعة إذ يلاحظ المتتبعللدولة السعدية خاصة في عهدها الأول[2]، أن صناعة السكر شكلت أولوية لدعم اقتصاد دولة الناشئة. حيث عملوا في مرحلة اولى على توسيع زراعة قصب السكر بمجالات زراعية مجاورة للأودية ومنابع المياه، حيث بلغت مساحة الاراضي المزروعة بقصب السكر في تارودانت وحدها حوالي 15000 هكتار متصلة[3]، و عملوا على بناء المعاصر في قلبها وذلك لكي لا يجف قصب السكر خلال نقله من الحقول الى المعاصر. كما سخر السعديين لنقل القصب داخل الحقول نحو أماكن التجميع حوالي مائتي عربة[4]. ومن الاجراءات الهامة التي قام بها السعديين بهدف الزيادة في الانتاج وتحسين جودته وجعله يتماشى مع متطلبات السوق العالمية، نجدهم يستقدمون الخبراء بأعداد مهمة للإشراف على المزارع سواء من اليهود أو الاندلسيين الذين ساهمت هجرتهم إلى المغرب في تقدم صناعة السكر إذ حملوا معهم تقنيات ومهارات متطورة ساهمت في تحسين جودة السكر السعدي. خاصة أن الأندلس كانت قد عرفت صناعة السكر منذ وصول المسلمين اليها، إضافة الى هؤلاء استفاد السعديين من عدد من الصناع الايطاليين والايبيريين الذين قدموا للمغرب للعمل في المصانع التي تم تشييدها في هذه الفترة. بينما كان عمال المصانع يتشكلون بالأساس من العبيد الذين أسروا في معركة وادي المخازن وعند غزو السودان[5].

2-سياق ازدهار صناعة السكر:

صادف اهتمام السعديين بصناعة السكر ظرفية دولية مساعدة، فمراكز إنتاج السكر وزراعة قصبه بالحوض الأبيض المتوسط، عرفت انحطاطا في دول كمصر وقبرص وجزيرة كريت وصقلية والأندلس منذ بداية القرن 16م[6]. كما أن المنتجين الجدد لهذه المادة كجزر الماديرو الأسور و ساوتومي و برانسيبي و جزر الكناري، قد تراجع إنتاجها انطلاقا من منتصف القرن 16م[7] وذلك بسبب الانتشار الواسع لجرثومة قضت على معظم المحاصيل، وتراجع انتاجية الاراضي بفعل الاستغلال المفرط بالإضافة الى الثورات المتكررة للعبيد بهذه المناطق[8].

كما كان للسياسة الاحتكارية التي نهجها الاسبان والبرتغال لأسواقهما بأمريكا والمحيط الأطلنتي دور بارز في ازدهار صناعة السكر خلال القرن 16م، حيث دفع هذا الاحتكار عدد من التجار غير الايبيريين إلى الاتجار مع المغربكالفلامنديين والفرنسيين وخاصة الانجليز الذي أصبحوا يتوافدون على سوس بكثرة[9]، وذلك نظرا لجودة السكر المغربي وانخفاض ثمنه مقارنة مع السكر الايبيري. ناهيك عن قرب المغرب من القارة الأوربية وتوفره على بضائع أخرى الى جانب السكر، وحاجة المغرب للمواد مرتفعة الثمن كالرخام والأسلحة النارية مما يعطي لهؤلاء التجار إمكانية للربح ذهابا وإيابا[10]. وبالتالي أصبح المغرب ابتداء من 1570م المزود الرئيسي لأوروبا بمادة السكر[11].

3-الأهمية الاقتصادية للسكر في العهد السعدي:

احتل السكر السعدي خلال القرن 16م مكانة هامة في مبادلات المغرب مع الخارج[12] وأصبح على رأس السلع

1- عبد العزيز الفشتالي، **مناهل الصفا في مآثر موالينا الشرفا**، دراسة وتحقيق عبد الكريم كريم، مطبوعات زوارة الاوقاف والشؤون الاسلامية والثقافة، الرباط 1972، ص209.

2- نقصد هنا الفترة الممتدة من بيعة أحمد الاعرج 1517، الى حدود وفاة احمد المنصور سنة 1603.

3- تتجلى اهمية هذا المعطى في كون السعديين تجاوزوا عاملا مهما طغى طيلة العصر الوسيط، والامر يتعلق بالبنية العقارية التي يغلب عليها التجزئة والملكية الفردية للأراضي.

4- دي صالدانيا، مصدر سابق، ص76.

5- محمد استيتو، «صناعة السكر خلال العصر السعدي: محطة ضائعة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي»، **مجلة كلية الآداب والعلوم الانسانية**، العدد 8، 2008. صص 62-63

6- حليمة بنكرعي، م س، ص46.

7- عثمان المنصوري، م س، ص 21.

8- حليمة بنكرعي، م س، ص46.

9- نفسه، ص47.

10- عثمان المنصوري، م س، ص 21.

11- عبد المجيد القدوري، م س، ص 206.

12- عثمان المنصوري، م س، ص 23

التي اَضحى الأجانب يقبلون عليها[1]، إذ بواسطته كان المغاربة يحصلون على الأسلحة النارية والمواد الحربية، كما كان يستبدل بالرخام حينما احتاج المنصور له عند بنائه لقصر البديع[2]. ونظرا لجودة السكر السعدي الذي كان **"أجود من سكر ماديرا، ويأتي في طليعة ما يصدر من بضائع بلاد البربر."**[3] حسب دي صالدانيا، عمل التجار الأوربيون للحصول على احتكار تجارته واستئجار معامله[4]. وتأتي انجلترا في طليعة الدول التي كانت لها رغبة في احتكار السكر المغربي، وذلك ابتداء من النصف الثاني من القرن 16م. ويتضح اهتمام التجار الانجليز بالسكر من خلال الملتمس الذي قدموه سنة 1576 الى المجلس الخاص الانجليزي لأجل احتكار هذه التجارة[5].كما أن الملكة الانجليزية إليزابيت الاولى لم تكن تريد غيره في قصرها[6]. ويبقى تأسيس شركة بلاد البربر (Barbary Compny) سنة 1589م أبرز دليل على رغبة التجار الانجليزإلى احتكار التجارة بين انجلترا والمغرب. إلا أن انجلترا لم تكن بمفردها تسعى للانفراد بهذه التجارة حيث سعت فرنسا لذلك خلال المفاوضات التي جرت بينها وبين المغرب سنة1561م، فيما توصل بعض الفرنسيين للإشراف على معاصر السكر سنة 1589 [7] مقابل تزويد السعديين بالخشب لصناعة السفن[8]. ويلاحظ من جهة اخرى أن اسبانيا والبرتغال لم تقبلا على السكر المغربي بسبب توفره في مستعمراتهما، ومع ذلك نجد بعض الخواص من التجار الاسبان يسعون لاحتكار تجارة السكر المغربي مع بعض المواد الاخرى مقابل 600 ألف كروزادو.[9] بينما منح السعديين سنة 1550 لعدد من التجار الاسبان احتكار

1- أحمد بوشارب، «محاضر محاكم التفتيش الديني مصدر من مصادر التجارة البرتغالية بالمغرب خلال القرن 16م»، **ضمن أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالدولة والمجتمع عبر تاريخ المغرب**، ج1،كلية الاداب والعلوم الانسانية عين الشق، الدار البيضاء، 1989. ص109.

2- عثمان المنصوري، نفسه، نفس الصفحة.

3- دي صالدانيا، م س، ص 77.

4- حليمة بنكرعي، م س، ص 96.

5- عثمان المنصوري، م س، ص 24.

6- حليمة بنكرعي، م س، ص95.

7- عثمان المنصوري، ص 24.

8- نفسه، ص 230.

9- نفسه، ص24.

المنتوج السكري المغربي لهذه السنة[10]. فيما كان يفسرـ اقبال البرتغاليين الذين -كان انتاج بلدهم من السكر مهما- على السكر المغربي نتيجة انخفاض ثمنه، وفي هذا الإطار قايض تاجر برتغالي كل حمولة سفينته بالسكر المغربي[11].

4-العائدات المالية للسكر:

حقق بيت المال السعدي عائدات مالية مهمة من خلال "الاستثمار" في صناعة السكر. إذ أصبحت تحتل المرتبة الاولى في صادرات المغرب الى الخارج بينما أصبحت مداخيل هذه الصناعة تحتل المرتبة الثانية بعض الضرائب. حيث بلغت نسبة الصادرات من السكر نحو انجلترا موسم 1575/1574 حوالي 93.6% من مجموع الصادرات بتصدير 540.200 طنا، حققت عائدات وصلت الى 27.257 جنيها. وفي موسم 1576/1575 وبلغت النسبة 87.8% من حجم الصادرات ب257.200 طنا بعائدات بلغت 21.424 جنيها[12]. وبالتالي ففي سنتين دخل بيت المال السعدي نحو 42.809 جنيها وهو ما يطابق بالعملة المغربية تقريبا 69.660 مثقال. بينما في عهد المنصور تذكر المصادر على أن الكمية التي كانت تصدر سنويا الى انجلترا هي 4.000 صندوق في السنة أي 1.200 طن بقيمة 16.800.000[13]. اضافة الى هذا يشير دي صالدانيا ان الى عائدات بيت مال المنصور غلب عليها مدخول السكر والضرائب اذ يقول **"...كاناستغلال السكر الذي هو اليوم ملك الشريف وتعشير البضائع المستوردة من الخارج موردين ماليين يعودان بأزيد من مليون دوكاطو..."**.

كان هذا بالنسبة لعائدات التجارة الخارجية، أما بخصوص كراء المصانع فان الأستاذة حليمة بنكرعي فقد توصلت الى أن قيمة الكراء قد وصل في عهد محمد الشيخ الى 7500 مثقال في السنة وإذا اعتبرنا المعامل الاربعة عشر، وافترضنا استقرار ثمن الكراء استقر فسنحصل في هذا الميدان يقدر ب: 105.000 مثقال في السنة[14].

10- نفسه، ص230.

11- أحمد بوشارب، م س، ص 109.

12- عثمان المنصوري، م س، ص 67.

13- حليمة بنكرعي، م س، صص 95-96.

14- نفسه، ص 48.

بالإضافة الى المداخيل المالية كان يستعمل السكر في المبادلات الخارجية وخاصة خلال فترة المنصور نهج سياسة منح الاحتكارات مقابل البضائع التي يحتاجها ويأتي في طليعة هذه المواد الأسلحة النارية. حيث منح سنة 1583م احتكار مادة السكر والبارود للتجار الانجليز مقابل الاسلحة. أما في سنة 1595م فقد حصل على المدافع ومعدات حربية اخرى مقابل السكر وملح البارود والتمور والزرابي(1). كما منح محصول سنة 1600م لتسديد دين كان عليه منذ 1595(2). كما تم مقايضة السكر بالرخام وزنا بوزن عندما شرع المنصور في بناء قصر البديع. و وظف سلاطين المغرب –في هذه الفترة- المزايا التي كانت لمادة السكر وقيمته الاعتبارية، في الحقل السياسي والديبلوماسي من أجل توطيد العلاقات مع الدول الأجنبية، وذلك بتقديمها كهدية مميزة للملوك وغيرهم (3).

خاتمة:

يتضح للمتتبع أن المغرب في هذه الفترة، أخد يخطو نحو بناء دولة قوية، تعمل على الانعتاق من المشاكل التي واجهت سابقاتها. وذلك باتخاذ مبادرات وصفها عدد من الباحثين بالتحديثية. الى أن واقع الحال كان غير ذلك إذ عرفت الدولة السعدية مجموعة من المشاكل والصعوبات خاصة بعد وفاة أحمد المنصور الذهبي سنة 1603م، حيث تنازع أبناؤه على الحكم، و أصبح المغرب مقسما بين مملكة فاس و مملكة مراكش.هذا الوضع انعكس سلبا على مزارع السكر و مراكز انتاجه بالمغرب بفعل عمليات التخريب التي تعرضت لها المنشآت والمصانع من طرف القبائل(4)،حيث عبرت هذه الاخيرة عن سخطها من احتكار السعديين لهذه الزراعة في المناطق الجنوبية و قضوا على زراعتها في شمال البلاد كأحواز سلا و طنجة و سبتة(5). يضاف الى هذا تعرض المغرب لسلسلة من الجوائح التي تعاقبت عليه بشكل دوري(6). ساهمت هي الاخرى في تراجع الأنشطة الاقتصادية وأثرت في ديمغرافيته. ففي نهاية هذا القرن اجتاح جفاف حاد أدى الى تدهور مختلف الزراعات وخاصة قصب السكر الذي يحتاج كميات مهمة من الماء. و مع مطلع القرن 17م ضربت المغرب مجاعة أعقبها وباء الطاعون الذي أودى بحياة الآلاف من السكان، بما في ذلك أحمد المنصور وذلك سنة 1603(7). قضى هذا الطاعون على أهم عمال مصانع السكر، وبالتالي فقد معه المغرب مجموعة من الخبراء سواء عبر الموت أو الهجرة هربا من الطاعون. وفي هذا الاطار أعلنت الشركة البربرية التي اسسها التجار الانجليز للتجارة مع المغرب عن افلاسها وتخليها عن مجموعة من الاحتكارات التي كانت تستفيد منها(8). كل هذا أسهم في اقبار صناعة السكر في المغرب، التي لن ترى النور إلا بدخول الاستعمار الفرنسي-الاسباني في بداية القرن العشرين.

1-محمد المهناوي، م س، ص 195.

2- حليمة بنكرعي، م س، ص 97.

3- محمد استيتو، م س، ص 63.

4 - توفيق لقبايبي، م س، ص 59.

5ـــابراهيم حركات، **السياسة و المجتمع في العصر السعدي**، دار الرشاد الحديثة الدار البيضاء، 1987، ص 278

6- تعاقب على المغرب خلال القرن 16م جوائح متعددة: الاوبئة 8 مرات، الجفاف والمجاعات 12 مرة، الفيضانات 4 مرات، الجراد 4 مرات، الزلزال مرة واحدة. انظر عثمان المنصوري، « تأثير الحروب والكوارث على النشاط التجاري بمغرب القرن 16م» **ضمن أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالدولة والمجتمع عبر تاريخ المغرب**، ج1،كلية الآداب والعلوم الانسانية عين الشق، الدار البيضاء، 1989 ص169.

7- توفيقلقبايبي، م س، ص 60.

8- نفسه.

-لائحة المصادر و المراجع

لائحة المصادر:

- دي صالدانيا أنطونيو، **أخبار احمد المنصور ملك المغرب**، تقديم وترجمة وتحقيق ابراهيم بوطالب، عثمان المنصوري، لطفي بوشنتوف، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، بدون تاريخ.
- الوزان الحسن، **وصف افريقيا**، ترجمة محمد حجي، محمد الاخضر- غزال، ط2، دار الغرب الاسلامي، بيروت، 1983.

لائحة المراجع:

- عبد الاحد السبتي، عبد الرحمان الخصاصي، **من الشاي الى أتاي، العادة والتاريخ**، منشورات كلية الاداب والعلوم الانسانية بالرباط، ودار ابي رقراق للطباعة والنشر، 2012
- القدوري عبد المجيد، **المغرب وأوربا ما بين القرنين الخامس عشر والسادس عشر(مسألة التجاوز)**،المركز التقافي العربي، ط2، الدار البيضاء، 2012.
- كريم عبد الكريم ، **المغرب في عهد الدولة السعدية، دراسة تحليلية لأهم التطورات السياسية ومختلف الظواهر الحضرية**، ط 3، منشورات جمعية المؤرخين المغاربة، الرباط، 2006.
- مجموعة باحثين، إشراف وتقديم محمد القبيلي، **موجز تاريخ المغرب**، منشورات المعهد الملكي للبحث في تاريخ المغرب، الرباط، 2015.
- Jean Brignon- A . Amine et autres, Histoire du Maroc, Edité par Paris, Casablanca Hatier, Librairie National (1967).

المقالات:

- استيتو محمد ، «صناعة السكر خلال العصر السعدي: محطة ضائعة في التاريخ الاقتصادي والاجتماعي»، مجلة الآداب والعلوم الانسانية، العدد 8، 2008.
- أطويف خديجة ، لمحة عن الحياة التاريخية لمنطقة وادي نون، أمل: التاريخ، الثقافة، المجتمع، العدد 43، 2014 ص 47 – 61.
- بنكرعي حليمة ، مداخيل بيت مال المغرب في عهد السعديين 1548 – 1661م، ط1، مكتبة دار السلام، 2006. ص 45.
- بوشارب أحمد ، «محاضر محاكم التفتيش الديني مصدر من مصادر التجارة البرتغالية بالمغرب خلال القرن 16م»، ضمن أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالدولة والمجتمع عبر تاريخ المغرب، ج1،كلية الاداب والعلوم الانسانية عين الشق، الدار البيضاء، 1989.

- بوشارب أحمد ، «محاضر محاكم التفتيش الديني مصدر من مصادر التجارة البرتغالية بالمغرب خلال القرن 16م»، ضمن أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالدولة والمجتمع عبر تاريخ المغرب، ج1،كلية الاداب والعلوم الانسانية عين الشق، الدار البيضاء، 1989.

- العمراني للاصفية ، كنتوري عائشة ، «زراعة قصب السكر من خلال نصوص تاريخية: ق 10- 16م»، أمل: التاريخ، الثقافة، المجتمع، العدد 43، 2014.

- لقبابيي توفيق ، «الأهمية الاقتصادية لمادة السكر خلال العهد السعدي»، أمل: التاريخ، الثقافة، المجتمع، العدد 44، 2015.
- المنصوري عثمان ، التجارة بالمغرب في القرن السادس عشر، مساهمة في التاريخ الاقتصادي، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، ط1، 2012. ص ص 19-20.
- المهناوي محمد، «دور التجارة الاوروبية في تعزيز الهياكل السياسية بمغرب القرن السادس عشر من خلال نموذج السلاح الناري»، ضمن أعمال ندوة التجارة في علاقتها بالمجتمع والدولة عبر تاريخ المغرب، الجزء الثاني، كلية الاداب والعلوم الانسانية عين الشق، الدار البيضاء، 1989.





الإنتاج الفلاحي خلال الفترة الوطاسية : جوانب من تفاعلات المغاربة بالمناخ والمجال



فخرالدين القاسمي
باحث في تاريخ

تعددت الأنشطة الفلاحية بمغرب الفترة الوطاسية، ولاشك بأن للمجال الطبيعي تأثير واضح في توزيعها؛ فالتضاريس والمعطيات المناخية تحدد وتوجه نشاط الإنسان، والتربة والشبكة المائية تفرضان توجها فلاحيا معينا ، والإنسان بمهارته يحاول التأثير على شكل المعطيات، والتكيف معها، والإستفادة منها، أو عكس ذلك يسخرها دون أدنى مجهود واضح لإستغلال المعطيات ذاتها إستغلالا ناجعا. ان الأقاليم الفلاحية كانت تتبع الأشكال التضاريسية دون أن يكون هناك تخصص تام؛ فالمناطق المرتفعة تعاطت خاصة لتربية الماشية، كما تواجدت بها الأشجار المثمرة، أما التلال فكانت تحمل الكروم خاصة، كما كانت بها بعض الحقول تقام بها بعض الزراعات، أما الأودية فتعاطى فيها للزراعة وتربية الماشية من أبقار وخيول، إضافة إلى تعاطي قاطنيها للزراعات الشجرية المثمرة، أما المناطق السهلية فكانت تزرع بها الحبوب والقطاني من فول وعدس وكذلك الكتان، كما كانت تربى بها الماشية. وعاشت هذه المناطق السهلية بالواجهة الأطلنتية تحت رحمة المغيرين البرتغال. لقد تدخلات عوامل طبيعية ومناخية وسياسية وثقافية في نوعية الأنشطة الفلاحية الممارسة خلال الفترة الوطاسية، كما تحكمت في مقادير المحاصيل(المردودية)، وفي توزيع خريطة الإنتاج، وكذا في تغليب بعض الأنشطة عن أخرى. إذ لم تكن الظروف الطبيعية والمناخية في معظم الأحيان المسؤول الوحيد عن تردي الإقتصاد الفلاحي، والذي يمكن إرجاعه إلى البنية الإجتماعية والعقارية والذهنية أكثر منها إلى التغيرات المناخية، المتسببة كذلك في تقلص المساحات المزروعة.

ومن أهم العناصر المناخية والمجالية المتحكمة نجد:

- المناخ .

بدون معرفة الخصائص المناخية لحقل دراستنا لا يرجى بتاتا فهم وتتبع تطور الحياة الإقتصادية،خصوصا الإقتصاد الفلاحي المحلي (زراعة ورعي).غير أن الإعتماد على مصادر المرحلة المدروسة،لمحاولة فهم وتتبع بل وضبط أحوال هذا المناخ يبدو أمرا عسيرا، ذلك أن أصحاب هذه المؤلفات لا يتحدثون عن المناخ إلا إذا تعلق الأمر بجفاف حاد أو سيل غير معتاد للتأكيد على ويلات الأول وخيرات الثاني، أو خروج الناس للدعاء في المساجد عند احتياج المطر[1]. لازالت الأبحاث في أوساط الباحثين المغاربة بخصوص تاريخ المناخ ضئيلة بلومنعدمة[2]، وغالبا ما اقتصرت على الدراسات المونوغرافية.عكس أوروبا التي عرف فيها تاريخ المناخ تقدما مهما، حيث اهتمت الحوليات بهذا الموضوع مند منتصف القرن 20م. وألف المؤرخ الألماني **Hans Von Rudloff**[3] في هذا الباب مؤلفا حول "**تاريخ مناخ أوروبا من 1670إلى 1965**"، لتتناسل بعد ذلك سلسلة من الأبحاث، فسرت على أساسها

---

[1]محمد مزين، فاس وباديتها، الجزء الأول، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية، الرباط. مطبعة المعارف الجديدة،1986 م. ص69.

[2]إن استثنينا تلك التي همة جوانب أخرى، وكانت مضطرة إلى البحث في عوالم التغييرات المناخية. خاصة التي تعلقت بمواضيعها بالأوبئة والمجاعات أو حتى الاقتصاد.باستثناء دراسة أقدم عليها الباحث عبدالهادي البياض موسومة ب "**المناخ والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال عصر الوسيط إسهام في دراسة الطقوس والذهنيات**".

[3]Le Roy Ladurie Emmanuel. Pour une histoire de l'environnement : la part du climat. In: Annales. Économies, Sociétés, Civilisations. 25□ année, N. 5, 1970. P.1459.
www.persee.fr/doc/ahess_0395-2649_1970_num_25_5_422285

جوانب مهمة من تاريخ أوروبا، لعل أبرزها تلك التي انبرى لها**Ladurie Emmanuel**[1] **Le Roy**وآخرون[2].

يسهم المناخ بشكل فعال في توجيه تاريخ أي منطقة بمجاليها الزراعي والرعوي إقتصاديا وإجتماعيا وسلوكيا، ذلك أن سقوط المطر أو انحباسه يؤثران سلبا على الإقتصاد، وبالتالي على المجتمع. لقد تنبه **عبدالرحمن ابن خلدون** لهذا المعطى، مؤكدا في تحليله على أهمية الظروف المناخية في تحديد البيئة الملائمة لحياة الإنسان، ولدرجة نشاطه وهي تتدخل في تكوين احتياجاته وفي طريقة معالجته لمشاكله، ويرى أن للحرارة والبرودة تأثير في سلوك الناس ،أي أن هناك علاقةبين المناخ والسلوك الإقتصادي في العمل وفي الإستهلاك ويذكر لنا مثالين على ذلك ، واصفا أهل المناطق الحارة بقوله :**"يغلب عليهم الغفلة عن العواقب حتى إنهم لا يدخرون أقوات سنتهم ولا شهرهم وعامة مأكلهم من الأسواق "**[3]. ثم يصف أهل المناطق الباردة بقوله :**"انظر كيف آفرطوا في نظر العواقب حتى إن الرجل منهم ليدخر قوت سنتين من حبوب الحنطة ويباكر الأسواق لشراء قوته ليومه مخافة أن يزرأ شيئا من مدخره"**[4]. لقد وجد ابن خلدون أن عادة الإدخار والتبصر في العواقب من سلوك المناطق الباردة وأن زيادة الطلب على السلع تتأثر بالمنطقة والمناخ الجغرافي الذي يعيش فيه السكان كما تتأثر بذلك أيضا طبيعة ونوع النشاط الذي يمكن ممارسته[5].

يعتبر المناخ سيد العوامل المتحكمة في أعمال الفلاحة، بالنظر لفعاليته المؤثرة في توزيع النطاقات و نمو الغطاء النباتي[6]، وبالتالي الأنشطة الزراعية بصفة عامة. ولاشك أن تتبع خصائص المناخ إلى حدود القرن 16ملعمل مفيد يمكننا من تحديد الوجه الطبيعي الذي كان عليه المغرب خلال تلك الفترة ، ويسمح لنا أيضا بمعرفة ما إذا كان المناخ قد عرف تقلبات أدت الى إختفاء بعض الظواهر الطبيعية وبروز أخرى، كتراجع الغابات مثلا وحدوث خلل في الوسط الإحيائي، إلا أن النصوص لا تسمح لنا مع الأسف بالقيام بهذا العمل، وإن كانت مع ذلك لا تبخل ببعض الإشارات المفيدة .

وكما هو مسطر قبلا نرجو من مقالنا هذا؛ الكشف عن بعض الجوانب الملغومة –المفيدة في تاريخ المغرب تخص الفترة الوطاسية، والتي لطالما وصفت بالهامشية والغير مؤثرة، منها في هذا الباب عنصر **"المناخ"** ؛معتبرين إياه من الأدوات المهمة الحتمية في تفسير الظواهر التاريخية. وبالأخص إعطاء معنى بمعية المجال في هذا المقال لوضع الإقتصاد الفلاحي، الذي أصبح عليه المغرب،وكذا انعكاساته على الإنتاج ومعيشة وسلوك المغاربة، بإعتباره المؤثر في تشكيل طبائعهم وألوانهم[7] والمساهم في صياغة سلوكياتهم وعاداتهم بصرف النظر عن كونها إيجابية أو سلبية ،ومن هذه الزاوية صحح "**ابن خلدون"** ما ذهب إليه النسابة في تعليل ألوان البشر،ووجدها فرصة أبرز فيها أن سواد البشرة وبياضها خاضعين لطبيعة الفصول ومميزات الأقاليم المناخية[8] .

لا أحد يُنكر أهمية المناخ وما يرتبط به من ظواهر في تبرير بعض الأحداث والمواقف التاريخية. عادة ما نقرأ في كتب التاريخ ومصادره التقليدية تلازم الأحداث والظروف المناخية؛ تارة ما إنتهى الغلاء الناجم عن تعسف المناخ والطبيعة وسوء أحوالهما بكوارث وحوائج وغليان إجتماعي،تمخضت عنه ثورات عجلت بنهاية دول ولا أدل على ذلك الفترة التي نحن بصددها، وتارة أخرى، يسر سخاءهما سبل العيش ونماء الدول وكثرة العمران وقلت الوباء. لقد دأب البعض إلى تفسير أعظم أحداث البشرية على ضوء الظروف المناخية، وربط في جانب كبير قيام الثورة الفرنسية 1789م ، بسوء الظروف المناخية وتعاقبها:(إنخفاض محسوس في درجات الحرارة ،تساقط البرد، سيادة الصقيع ...) مما أدى إلى إنخفاض محسوس في المحاصيل الزراعية، وبذلكتناقصت المنتجات الغذائية إلى حد تضاعف أسعارها. فتولد عن هذه الوضعية غليان إجتماعي، أدى إلى اندلاع الثورة . نورد في السياق نفسه مثال آخر يؤكد على أهمية العوامل المناخية في تفسير بعض الأحداث كالأزمة الإقتصادية التي شهدها العالم في ثلاثينات القرن الماضي، والمجاعة التي عاشتها دول الساحل الإفريقي، يفسرها الكثير بالعوامل المناخية.وهناك من يعزى انهزام جيش نابليون أمام الروس 1812م،

[1] Le Roy Ladurie Emmanuel. Le territoire de l'historien. Ed : Gallimard; paris 1973.
Le Roy Ladurie Emmanuel. Histoire du climat depuis l'an Mil. Champs Flammarion. Paris 1983.

[2]Le Roy Ladurie Emmanuel. Histoire du climat depuis l'an Mil. Champs Flammarion. Paris 1983. P1.

[3]عبدالرحمن ابن خلدون، المقدمة، الجزء الأول، تحقيق عبد الواحد الوافي ،دار نهضة مصر للنشر ، الطبعة السابعة ،2014،ص398.

[4]نفسه.

[5]شوربجي عبد المولى ،الفكر الإقتصادي عند ابن خلدون :الأسعار والنقود، إدارة الثقافة والنشر ،جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية -السعودية .ص43-44.

[6]علي البنا ، أسس الجغرافية المناخية والنباتية ، دار النهضة العربية للطباعة والنشر. بيروت 1970م .ص249.

[7]أوستن ملر، علم المناخ، تعريب محمدة متولي و ابراهيم رزقانة، مكتبة الأنجلوالمصرية، الطبعة الثانية، 1985.ص3.

[8]عبدالهادي البياض ، المناخ والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال عصر الوسيط إسهام في دراسة الطقوس والذهنيات ،المجلة العربية ،الرياض،1436.ص12.

والألمان في معركة ستالينغراد في شتاء 1942-1943م، إلى الإنخفاض الشديد في درجات الحرارة ، والذي لم تكن هذه الجيوش مستعدة لها بما يلزم. والأمثلة في هذا الباب كثيرة ...

ماذا عن عنصر المناخ في هذا المقال؟

دفعتني المعطيات الواردة في المصادر المتوفرة - على قلتها – خاصة المقدمة **لابن خلدون** ؛ وصف إفريقيا**"للحسن الوزان"**؛ وإفريقيا**"لمارمول كربخال"** وباقي المصادر المتقدمة، إلى استحسان فكرة إدراج عنصر لمعالجة مسألة مناخ المغرب إبان الفترة الوطاسية، إلا أن هذا الإستحسان سرعان ما اختمر وتمخضت عنه شبكة من العلاقات السببية المفسرة لإشكالات المقال ، وهكذا كان لعنصر المناخ دوره الأساسي هو أيضا فيها .

حملت النصوص التي وقفنا عليها تارة أخبار تتحدث عن جفاف حاد وحرارة شديدة خاصة بالقسم الجنوبي الشرقي، وتارة أخرى، عن أمطار غزيرة وإنخفاض في درجة الحرارة مصحوب بعواصف ثلجية، غير أن ما يجب تسجيله بخصوص هذه النصوص :أنها لم تذكر اعتباطا من قبل أصحابها ، بل من المرجح أن تكون هذه الظروف المناخية المسجلة قد فرضت نفسها وبقوة على المسجلين للأحداث. الأمر الذي يدفعنا للتساؤل حول إذ ما عرف المغرب تقلبات مناخية كبرى(استثنائية) خلال النصف الثاني من القرن الخامس عشر والأول من القرن السادس عشر؟. لا ريب أن السنوات العجاف التي عاصرت أيام دولة بني وطاس خير دليل على هذه التغيرات المناخية في إتجاه السلب، بمعنى إرتفاع درجة الحرارة وإنعدام وعدم انتظام التساقطات و توالي سنوات الجفاف والقحط. وهي خصائص تقاسمها المغرب مع دول البحر الأبيض المتوسط[1].

لقد كان للمناخ النزر اليسير في حياة الإنسان المغربي خلال الفترة المدروسة. فرغم الوهن السياسي الذي لازم الفترة ،إلا أن الكثير من الظواهر المناخية أثرت على الإنسان والمجال والإنتاج الإقتصادي؛ كالجفاف والحرارة ؛والفيضانات؛ والثلوج...، ولقد أكد **Le Roy LadurieEmmanuel**[2] في **مؤلفه Histoire du climat depuis l'an Mil** كيف أن الناس يولون دائما اهتماما كبيرا للمناخ، ذلك أن الكثير من جوانب حياتهم، وسبل معيشتهم مرتبطة به إلى حد بعيد، كما أن نشاطاتهم كلها، الإجتماعية منها والثقافية، تنتظم على أساس المعطيات المناخية التي يؤدي تقلبها إلى تغيّر جذري أحيانا في نمط حياتهم.

إن سلوك وأنشطة الإنسان المغربي اليومية(الزراعة ؛التجارة ؛والصناعة) خلال الفترة الوطاسية، تأثرت بنوعية المناخ السائد، فلا غرابة أن توقفنا نصوصا توحي إلى تأثير وتحكم المناخ في تصرفات الناس، فالطقس يحتم على الإنسان إختيار نوعية الملابس التي يرتديها، ويفرض عليه نوعا من الأطعمة المتناولة وكذا تقاليد وعادات معينة...، لا تخرج عن نطاق المنتوجات المتوفرة في المجال، إن المناطق الباردة مثلا؛ يحتاج سكانها إلى ألبسة [3] صوفية وأطعمة معينة، مقاومة لحالة الطقس السائد ، عكس المناطق الحارة التي لا تتطلب نفس الملابس ولا نفس الأطعمة. أما فيما يخص طباع الناس وأخلاقهم فالمصادر المتوفرة[4]، تجمع على أن بعضا من سكان الجبال أشد بأسا وفساد أخلاق –شرب الخمر بجبال الريف[5]- من بعضهم الآخر الذي تميز بالشجاعة والتعقل والعلم والشرف[6]وبرودة الدم وقلة الإنفعال، وأهم ما يجب أن يسجل في هذا الباب أن كلا من مارمول كربخال والوزان أجمعوا في وصفهم، على أن غنى بعض المناطق ووفرة مواردها إنعكس إيجابا على طبائع السكان.

ونصوص أخرى تبرز العلاقة القائمة[7] بين المناخ والمجال من جهة وأعمال الفلاحة من جهة أخرى: في نوعية الأنشطة الزراعية[8] الممارسة ، وكذا أصناف المحاصيل والمنتوجات الزراعية ،فمناطق إنتاج الحبوب ؛"إقليم تامسنا" مثلا، يختلف مناخه ومجاله عن مناطق أخرى،

---

[1]للوقوف على أهم التغييرات المناخية التي عرفتها بعض بلدان العالم المتوسطي. العودة
Le Roy Ladurie Emmanuel. Histoire du climat depuis l'an Mil .pp 13-14.

[2] Le Roy Ladurie Emmanuel. Le territoire de l'historien. Ed : Gallimard; paris 1973.
Le Roy Ladurie Emmanuel. Histoire du climat depuis l'an Mil. Champs Flammarion. Paris 1983.

[3]إلا أن الوزان في وصفه يقدم عكس ذلك ، مؤكدا تأقلم الإنسان المغربي مع مناخ منطقه كما هو الحال بجبل هنكيسة بإقليم سوس ،إذ يصرح بما مفاده :"غير أن السكان لا يخشون البرد ،فتراهم شبه عراة طوال فصل الشتاء ". الحسن بن محمد الوزان الفاسي ،وصف افريقيا ،ترجمة محمد حجي ومحمد الأخضر ،الجزء1، منشورات الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، دار الغرب الإسلامي ، الطبعة الثانية ، بيروت ،1983ص120.

[4]وصف أفريقيا لحسن الوزان ؛ وإفريقيا لمارمول كربخال.،

[5]"سكان الريف شجعان، لكنهم تعودوا السكر والملابس الرديئة ".الحسن الوزان،ج1،ص324.

[6]في جبل دمنسرة : "يوجد من بين السكان أشراف كثيرون تخضع لهم العامة جميعا ". الوزان ،ج1،ص111.

[7]شكل الماء عصب هذه العلاقة.

[8]ظل الانسان على مدى قرون وقرون أسير المناخ وأسير أنماط محددة من الزراعة، أي أسير توازن تم بناءه ببطء شديد بين البشر والوسط الذي يعيشون فيه. **فرناند بروديل، المتوسط والعالم المتوسطي، تعريب وايجاز مروان أبي سمرا، دار المنتخب العربي، الطبعة الأول، بيروت،1993. ص15.**

حيث تميز بأرضه الخصبة الملائمة لإنتاج جميع أنواع الحبوب وكذلك القطاني في مناطق متفرقة من الإقليم ، فمنطقة أنفا ، والنخيلة ومدينة أدنون و تيكت ،كانت تعرف إنتاجا وفيرا في محصول القمح ، حتى قال الوزان في حديثه عن مدينة تيكث ؛"**مررت بهذه المدينة فلم تعجبني ، لكن أرضها في الواقع جيدة تكثر فيها الحبوب**[1]. هذا في الوقت الذي توقف الفلاحون والفلاحة في ماسة على فيضان نهر سوس خلال شتنبر وآخر أبريل.وإذ لم يحدث فيضان في أحد هذين الشهرين إنعدمت الغلة في تلك السنة[2].

بينما اشتهرت مناطق أخرى بأنواع أخرى من محاصيل الحبوب كالشعير بجبال إقليم حاحا وهسكورة بالإضافة الى الريف، وأصناف أخرى من المنتوجات كالفواكه والكروم في إطار حدائق وجنات وبساتين،خاصة بهوامش المدن كما الحال بالنسبة لمدينة **سبتة**[3]وفاس ومكناس ومراكش ... والأمثلة كثيرة. ومعلوم أن تنوع هذه الأنشطة كما وكيفا خضع لمبدأ إنخفاض درجة الحرارة أو إرتفاعها، وإرتفاع كمية الأمطار أو قلتها...إلخ. عموما تكاد خريطة المجالات،تبعا لأهمية مواردها الطبيعية والفلاحية خاصة،تماثل خريطة توزيع التساقطات إلا في المرتفعات حيث إمكانات الإستغلال عكسية من أسفل إلى أعلى ، وأيضا في الواحات وحول نقط الماء والمجاري في الجنوب[4] .

بينما تُفصح نصوص أخرى عن أخبار تخص تلك العلاقة –الضمنية – بين المناخ والمجال من جهة،والحرف والصنائع من جهة أخرى، فوفرة الماء -المتحكمة فيها العوامل المناخية-، عامل مساعد على قيام كثير من الحرف والصنائع والمنشآت المرتبطة بهما في مناطق مختلفة من المغرب الوطاسي . أما قلته أدت حتما إلى غياب هذه الصنائع.كما كانت وفرت بعض المعادن في مناطق معينة فرصة مواتية لسيادة بعض الحرف؛ففي ناحية جزولة على سبيل المثال لا الحصر، تكثر معادن النحاس والحديد،لذلك يصنعوا سكانها عددا من أنواع ماعون النحاس، وسائر ما يحتاجونه إليه من الأشياء الضرورية.[5]

وقبل التوقف عند أهم عناصر المناخ الثلاثة؛ الحرارة؛التساقطات؛ الرياح، وجب التذكير بأهم العوامل المؤثرة على هذه العناصر والمتمثلة أساسا في عنصرا الموقع العرضي والكتل الهوائية باعتبارها المفسرة للتباين المناخي القائم بين منطقتي المغرب الشمالية والجنوبية. إلى جانب عاملان آخران هما: علو التضاريس والقرب أو البعد من البحر[6] وحركة الرياح. يؤثر الموقع العرضي في تحديد خصائص مناخ المغرب، سواء من حيث توزيع كمية الأمطار أو الحرارة. فبحكم موقعه بين خط عرض 21° و36° شمالا، فإنه ينتمي إلى العروض الشبه المدارية. وأيضا تواجده في منطقة انتقالية بين نطاقين مناخيين كبيرين: النطاق المعتدل في الشمال والنطاق المداري في الجنوب . كما تلعب التضاريس دورا رئيسيا في تحديد خصائص مناخ المغرب وتباينه الجهوي من منطقة لأخرى، فانتصاب السلاسل الجبلية وسط البلاد، أدى إلى خلق مجالين مختلفين[7]: المغرب الشمالي الغربي المنفتح على الرياح الممطرة، والمغرب الشرقي والجنوبي الخاضعين للتأثيرات الصحراوية. بالإضافة إلى عامل قرب المغرب من البحر والمحيط، إذ بحكم موقعه الجغرافي، ينفتح بشكل واسع على المؤثرات البحرية[8] المتوسطية في الشمال، والمحيطية في الغرب.هذه المؤثرات تساعده على اعتدال المناخ بالمناطق الساحلية ، حيث تقوم بتلطيف درجة الحرارة في فصل الصيف، والتخفيف من قساوة برودة الشتاء، غير أننا كلما ابتعدنا عن السواحل وتوغلنا شيئا فشيئا داخل البلاد تضعف التأثيرات البحرية، و يكون المدى الحراري السنوي منخفضا بالمناطق الساحلية ومرتفعا بالداخلية.

1.الحرارة:

تعد الحرارة من العناصر المناخية الهامة في أي نشاط زراعي، إذ أن درجتها في منطقة ما لا تؤدي دورها الا في علاقتها بعنصر الرطوبة، لأن النباتات الزراعية والأشجار تتأثر بعاملين، الأول هو امتصاص النبات للماء من التربة، والثاني هو فقدان هذه المياه عن طريق التبخر، ويحقق النبات أنسب فصوله إذ كانت هاتين العمليتين متوازيتين[9]. نكاد نفتقد إلى معلومات بسيطة فيما يخص عنصر الحرارة، فالمصادر التاريخية المتزامنة مع الفترة المدروسة، لا تقدم لنا مادة خصبة ومعقولة للبحث

[1]الوزان ،ج1، ص200.

[2]الوزان ،ج1،ص113.

[3]محمد بن القاسم الأنصاري السبتي ،إختصار الأخبار عما كان بثغر سبتة من سني الآثار ،تحقيق عبد الوهاب بنمصور ،الطبعة الثانية ،الرباط ،1983،صص 53 – 57.

[4]محمد استيتو ،فائدة كتب الرحلات والجغرافية في كتابة التاريخ الإقتصادي للمغرب :أنموذج وصف افريقيا للحسن الوزان، ضمن سلسة دراسات وأبحاث تاريخية :المغرب في عهد الوطاسيين ،تنسيق محمد استيتو ، منشورات جمعية الحسن الوزان للمعرفة التاريخية ،الطبعة الأولى ،2011،ص 34.

[5]الوزان،ج1، ص144.

[6]أوستن ملر، علم المناخ، مرجع سابق،ص44.

[7]نفسه،ص55.

[8]أهمية المؤثرات البحرية في رسم معالم المناخ. راجع أوستن ملر، مرجع سابق، ص57.

[9]علي البنا ، أسس الجغرافيا المناخية و النباتية ،دار النهضة العربية للطباعة و النشر و التوزيع ،الطبعة 1، ص 254.

بقدر ما جادت علينا بإشارات قليلة متناثرة، فرضت علينا تعاملا حذرا معها.

خضعت درجة الحرارة لتوزيع متباين بفعل تدخل عاملين أساسين وهما: عامل موقع الإرتفاع بالنسبة لخطوط العرض ،والبعد أو القرب من البحر. أخذت شكل الارتفاع بالمناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية، إذ تميزت سجلماسة ومجالها بشدة الحرارة والجفاف (كباقي الجهات الجنوبية)، لأن موقعها لا يتعرض للتأثيرات البحرية بسبب ارتفاع جبال الأطلس الكبير والصغير على امتداد الحدود الشمالية والجنوبية الغربية منها[1]. **الوزان** الذي زار المنطقة خلال القرن 16/10م وقبله **ابن الخطيب**[2]يؤكدان هذه المعطيات المناخية [3]،ويجاريهم في ذلك **مارمول كربخال** الذي يعتبر :"**أن هذا القسم من إفريقيا (نوميديا) أشد حرارة من بلاد البربر، لأنه يقع جنوب جبال الأطلس، لذلك فإنه يكاد يكون كله مجدبا ونقيصه الماء ،ولو أن بعض الأنهار ترويه بعد خروجها من هذه الجبال**[4]. لقداتسمت المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية خلال الفترة الوطاسية بدرجة حرارة مفرطة وجفاف حاد، ذلك أن درجات الحرارة عرفت ارتفاعات مهولة خلال الفصل الصيف بلغت تقريبا°45 درجة ،قابلها شح في كميات الأمطار، حتى اعتبر الجفاف أهم خصائصها في نظر الواصفين، بالنظر لبعدها عن الواجهات البحرية وقربها من الصحراء الإفريقية الكبرى، حيث تتلقى تأثيرات حارة وجافة تمثل بحق دعامة طبيعية لقساوة المناخ ، ذلك أن "**إفراط الحر يفعل في الهواء تجفيفا ويبسا يمنع من التكوين لأنه إذا أفرط الحر جفت المياه والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات"**[5]. وتدخل هذه المؤثرات الصحراوية الجافة ضمن سمات **"مزاج الصحراء"**[6]، عكس المناطق الساحلية التي تتلقى كميات مهمة من التساقطات،حيث تستقبل كتلا هوائية رطبة ،مما صبغ هذه المناطق بخصائص المناخ المحيطي الرطب وهو ما دعاه ابن خلدون ب "**مزاج التلول"**[87]. هذه الحقيقة ليست وليدة اليوم ، بل هي ضاربة في أعماق الزمن، فقد سبق أن أشار إليها **البكري خلال القرن 5ه / 11م، والحميري**[9] **ق14/8م والقلقشندي**[10] **ق 15/9م**، القرن 10ه/16م[11].

غالبا ما كان هذا الإرتفاع في درجة الحرارة يودي بالأرواح قبل أنيتقاعس المغاربة عن التعاطي للزراعة، كما حصليوم30يوليوز 1517م حيث توفى الأسرى الذين كان المغيرون البرتغال يسوقهم إلى مركز سانتا كروز من جراء العطش، ويخلف جفافا حادا، كالذي سجله **الوزان** بخصوص المناطق الواقعة خلف الأطلس الكبير، والتي حسب وصفه لا تتوفر الا على القليل من الأراضي التي يمكن زراعتها خارج القطاعات السقوية المرتبطة بالأنهار، أما المناطق الجبلية فكانت سمتها إنخفاض درجة الحرارة (البرودة)المعيقة أيضا للأنشطة المختلفة ، ومنها تلك المرتبطة بمجال بادية سوس ، والواقعة بجبل درن، عكس المناطق الجبلية الأخرى الواقعة خلف مجال "درن" مثل الأطلس الصغير وجبل "باني" المتميزة بجفافها.[12]

هذا في الوقت الذي عرفت فيه الأقطار الواقعة شمال غرب منطقة سجلماسة ومجالها[13]؛إعتدالا في أغلب الفترات، تخللتها سنوات عجاف بسبب ارتفاع درجة الحرارة التي عمت معظم بلدان المتوسط، ترتبت عنها وفيات عدة بسبب العطش والمجاعات والأوبئة كما حدث سنوات **(1511 ؛1513 ؛1514؛ 1521؛1522؛1525؛ 1541)** بمنطقة دكالة. وهذه الظواهر المناخية كانت تطرح مشكل الماء لسكان بوادي المنطقة ، دافعة إياهم الى البحث عنه واستغلاله بواسطة وسائل شتى: الأبار والنفطيات[14] . وباستثناء السنوات المذكورة عرفت دكالة كل خصائص المناخ المتوسطي : حرارة في الصيف ،ورطوبة وبرودة في الشتاء ، فدرجة الحرارة أعلى من المناطق

[1]حسن حافظي علوي، سجلماسة وأقاليمها في القرن الثامن الهجري/ الربع عشر ميلادي، وزارة الأوقاف والشؤون الاسلامية، 1418/1997. ص41.

[2]ابن الخطيب لسان الدين ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ، تحقيق محمد كمال شبانة، مطبعة فضالة .1977م. ص181.

[3] الوزان، ج2، ص120.

[4]مارمول كربخال ، افريقيا ،ترجمة محمد حجي وأخرون ، الجزء 1 ، الجمعية المغربية للتأليف الترجمة والنشر، المعارف الجديدة ،الرباط ،1984،ص 44.

[5]ابن خلدون ،المقدمة ، الجزء الأول ،مرجع سابق ،ص352.

[6]كتل هوائية حارة وجافة .

[7]كتل هوائية قادمة من الشمال رطبة وغالبا ما تكون مطرة .

[8]عبدالهادي البياض ، المناخ والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال عصر الوسيط إسهام في دراسة الطقوس والذهنيات، مرجع سابق،ص13.

[9]أبو عبدالله محمد الحميري، الروض المعطار في خبر الأقطار ،تحقيق إحسان عباس ،مكتبة لبنان ،بيروت ،الطبعة الثانية ،1984م.

[10]أبو العباس أحمد بن علي القلقشندي ،صبح الأعشي في صناعة الإنشا ، الجزء الخامس ،المؤسسة المصرية القاهرة ،1922.

[11]أحمد عبد اللوي علوي ، مدغرة وادي زيز :إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث ، الجزء الأول ، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية ، 1996.ص56.

[12]حليمة بنكرعي، العنصر العربي والمجال في مغرب 1459-1541م: بادية الواجهة الأطلنطية نموذجا، مطبعة دار السلام، الطبعة الأولى، 2000. ص225.

[13]إن موقع سجلماسة على باب الصحراء الكبرى جعل المناخ بمجالاتها جافا وقاريا .لأنها لا تتعرض للتأثيرات البحرية بسبب ارتفاع جبال الأطلس الكبير والصغير على امتداد الحدود الشمالية والجنوبية الغربية منها . ويمتاز هذا المناخ بارتفاع درجة الحرارة في كل فصول السنة ، وقلة التساقطات فضلا عن هبوب الرياح الحارة.

[14]حليمة بنكرعي، العنصر العربي والمجال في مغرب 1459-1541م: بادية الواجهة الأطلنطية نموذجا، مرجع سابق. ص136.

الشمالية في حين كمية التساقطات أقل[1]. أما بخصوص المناطق الشمالية حسب **الباحثة حليمة بنكرعي**، سادها الإعتدال في درجة الحرارة وغزارة في التساقطات بإستثناء بعض سنوات **الجفاف (1469/1468 ؛1521)** ؛ التي لم ترحم مجموع مناطق المغرب.

عموما يمكننا تسجيل خاصية طبعت الخريطة الحرارية بالمغرب الوطاسي، تبدو مشابهة للخريطة الحالية في أبعادها العامة، إذ ترتفع في المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية مصحوبة بقلة التساقطات مسببة جفاف حاد تنعدم فيه الزراعات البورية، وتتدرج نحو الإنخفاض كلما اتجهنا نحو الشمال والشمال الغربي، فكلما اتجهت الكتل الهوائية الحارة نحو الوسط والشمال فإنها تحمل معها خصائص الجفاف، بحيث يضعف تأثيرها في المناطق المتاخمة للسواحل،لاسيما عندما تلمس المسطحات المائية مما يعدل من جفافها، وهذا ما خلص إليه ابن خلدون من خلال قوله : **"ولهذا كان لرطوبة هواء البحر المحيط -الأطلنتي -والبحر الرومي -المتوسط—أثر في اعتدال مناخ المغرب فنقص ذلك من اليبس والإنحراف الذي يقتضيه الحر (..) وسار الاعتدال بسبب رطوبة البحر"**[2]؛ هكذا سار وسط البلاد منطقة استقبال المؤثرات المناخية، فإذا كان مصدر الكتل الهوائية من الشمال والغرب تكون مميزاتها رطبة مصحوبة في الغالب بتساقطات مطرية، أما إذا انبعثت جنوبية كانت كتلها حارة جافة.

2. التساقطات.

أ. التساقطات المطرية:

لا تختلف خريطة التساقطات عن الحرارة بالنظر للتلازم الموجود بين العنصرين، وما نستشفه من استقراءنا للمصادر في هذا المجال، هو ضعف التساقطات المطرية و ارتفاع درجة الحرارة، فكثيرا ما تحدثت تلك المصادر عن جفاف حاد تلته مجاعات وأوبئة ناجمة عن عدم نزول المطر. فهذه **وثيقة مؤرخة يوم 28ماي 1518م**، صادرة عن مركز سانتا كروز تقول: بأنه في تلك السنة ، ساد الجفاف بأرض المسلمين، وطلب حاكم الحصن من السلطات البرتغالية بلشبونة، تزويده بالقمح، عن طريق مقايضته بالعبيد في هذا المركز؛ ويخبرنا نص آخر أن تجارة العبيد ازدهرت وقت المجاعات.بينما تشير **وثيقة أخرى مؤرخة يوم 15يناير 1542م،** الى مجاعة بمنطقة سوس، سببها عدم نزول المطر ، مما أدى الى ارتفاع ثمن مادة القمح الى سعر لم يصله قط وهو 184ريال للكيل[3]. عموما فالأمطار تميزت بالضعف ، مما اضطر سكان المنطقة (السوس) إلى الإستعانة بوسائل الري البديلة لممارسة الأنشطة الزراعية، عن طريق السواقي خاصة. هذا في الوقت الذي وقف فيه الموسم الفلاحي على فيضانات الأنهار الكبرى مثل نهر ماسة وسوس.

إذا كان انحباس المطر لاسيما خلال فصل الخريف يعتبر كارثة بالنسبة لمنتوج القمح حسب ما أورده **الوزان** -كما انحباسه في فصل الربيع يعتبر كارثة كذلك على مسار نضجه-، الا أنه مع ذلك يعتبر حسنة بالنسبة لجودة منتوج التمر، الذي لا يعتبر فقط القاعدة الأساسية لغذاء السكان بالمناطق الجنوبية كما ذهب الى ذلك **الأستاذ العربي مزين**، بل كذلك مادة أساسية للإتجار والتبادل، بإمكانها أن تقاوم النقص الحاصل في منتوج القمح ليس فقط خلال الأزمات الفلاحية، بل حتى وقت الرخاء والانتعاش الفلاحي، فقد أشار الوزان أنه عندما ينحبس المطر تجود غلة التمر، ويفضل النوميديون كثيرا غلة التمر على غلة القمح ، لأن هذه الأخيرة مهما كثرت لا تكفي لنصف السنة،ونفس الإشارة يزكيها **مارمول كربخال**[4].

تميزت التساقطات المطرية بمنطقة دكالة ومجالها بعدم الانتظام خلال فصل الشتاء ، فهناك سنوات عرفت إفراطا الى حد فيضانات، كما حدث سنة 1526م، وسنوات أخرى مطرة **(1461م؛1512م؛1517م؛1518؛1526م؛1542؛ 1548م)**[5]. لقد سمحت كميات الأمطار المحترمة (حوالي أكثر من 300ملم سنويا) في كل أقسام دكالة بزراعة جافة. ومن المعلوم أن هذه المعدلات في حالة مناخ المغرب لها طابع بيداغوجي توضيحي فقط، فالمهم ، ليس هو مجموع ما يسقط من أمطار خلال الفصل الممطر، ولكن كيفية توزيع هذه التساقطات خلال الفترة الزراعية، لقد كان ولايزال سقوط الأمطار الخريفية أساسيا لبداية عملية الحرث، وكل تأخر يؤدي الى قلق الفلاح، في حين أنها اذا انعدمت أدت إلى جفاف كما حدث 1520م. أو سنة 1541، وكانت هذه الأمطار تسقط في الفترة

[1]أحمد بوشرب ،دكالة والإستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وآزمور (قبل 28غشت 1481-أكتوبر 1541)،دار الثقافة ،الطبعة الأولى، الدار البيضاء ، 1984. ص 55.

[2]عبدالهادي البياض ، المناخ والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال عصر الوسيط إسهام في دراسة الطقوس والذهنيات، مرجع سابق،ص13-14.

[3]حليمة بنكرعي، العنصر العربي والمجال في مغرب 1459-1541م: بادية الواجهة الأطلنطية نموذجا، مرجع سابق. ص 224.

[4]أحمد عبد اللوي علوي ، مدغرة وادي زيز :إسهام في دراسة المجتمع الواحي المغربي خلال العصر الحديث. الجزء الأول ، مرجع سابق ،ص ص56/55.

[5]حليمة بنكرعي، نفسه.ص136م.

الممتدة من شهر شتنبر إلى شهر دجنبر. وتجمع المصادر البرتغالية على أن عمليات الحرث كانت تتم قبل النصف الأول من دجنبر ، وإلا فإنها تعتبر متأخرة كما حدث سنة 1517م حيث لم تشرع القبائل الشرقية في الحرث إلا بعد بداية شهر يناير ولا تحدد الأمطار الخريفية وحدها مصير المحاصيل التي تبقى مرتبطة بالأمطار الربيعية، ولذلك يبقى بعد نهاية الحرث إلقاء البذور شبح الجفاف مسيطرا طالما لم تنزل الأمطار[1]. وهو ما سجله **الوزان** بقوله "**واذا لم تمطر السماء في شهر أبريل كانت غلة القمح منعدمة في البوادي**"[2].

قدرت كميات المطر **بمنطقة القصر الصغير وباديته** ما بين 800الى 1000مم ،وما يميز المنطقة في هذا المجال هو كون الأمطار بها منتظمة خلال الفصل البارد بحيث لا يعتري هذا الفصل أي تجويف في المنحى المطري، وتنعكس وفرة هذه الأمطار على الغطاء النباتي[3] والأنشطة الزراعية الممارسة. وهو ما افتقدناه كلما اتجهنا على الشريط المتوسطي نحو الشرق حيث تتناقص كميات التساقطات مقارنة بالغرب. كما كانت المنطقة تشهد تساقطات ثلجية في فصل الشتاء، إلى جانب باقي المناطق المرتفعة على حد تعبير الوزان. مما يضفي عليها طابع البرودة.

انطلاقا من رصد توزيع التساقطات المطرية خلال الفترة المدروسة. يتبن أنها اتسمت بالضعف والإنخفاض بالمقارنة مع ما ذكره **الشريف الإدريسي وابن الخطيب**[4].كما نستشف أنها اتخذت طابع التباين جغرافيا وزمنيا بين مختلف مناطق المغرب بفعل عامل التضاريس بواسطة عنصري الإرتفاع الطبوغرافي والتوجيه[5]؛ إذ تكثر بأنواعها في المناطق الساحلية وفي المرتفعات بالواجهة الشمالية الغربية، وتشح تدريجيا بالجنوب والجنوب الشرقي. وتتأرجح بين سنوات مطرية جيدة، وأخرى عجاف ينحبس فيها المطر بالمرة، ونجد في **الاستقصا**ما يعبر عن ذلك: **"في سنة ست وعشرين وتسعمائة انحبس المطر بفاس والمغرب واضطر الناس الى استخراج السواقي من الأودية و الأنهار لسقي زرعهم وثمارهم"**[6].

إذا كانت التساقطات في معظم الأحيان نعمة توقفت عليها الأنشطة الإقتصادية ،فإنها تحولت أحيانا أخرى إلى نقمة تفسد الغلة وتعرقل عمليات المبادلات التجارية. وتنبهت في هذا الباب المصادر المتوفرة لأضرار نزولها في غير أوقاتها المعتادة وكذا الأضرار المرتبطة بها؛ ففي هذا الصدد أشار الوزان أن أمطار شتنبر تفسد غلة التمور في الواحات، كما ينجم عن غزارتها في مناطق أخرى، فيضانات تتلف البساتين والمحاصيل. وتضر فيضانات الأودية أحيانابحركة التبادل التجاري بسبب تعطل عمليات عبور الأودية، بالإضافة إلى أن توحل الطرق بسبب كثرة الأمطاريجعل حركة النقل والتنقل عسيرة وبطيئة،فترتفع أثمان نقل البضائع. ففي تييوت بسوس ،مثلا، يحمل مثقال واحد من خمسة إلى ستة أحمال الجمل في الأيام العادية، بينما في فصل الشتاء يصبح السعر العادي لحمل البضائع، إن لم يكن مرتفعا ولا منخفضا، مثقالا واحدا لثلاثة أحمال الجمل فقط[7].

ب. التساقطات الثلجية.

لم تعر مصادر الفترة الوطاسية-على نذزتها- إهتماما كبيرا للتقلبات المناخية إلا في حالة حدوث شذوذ ما في اتجاه الإرتفاع أو الانخفاض. والتساقطات الثلجية لا تخرج عن هذا المنحى، إذ لم تهتم بها نصوص الفترة إلا عرضا، وحتى التي تناولتها بهذا الشكل قليلة. غير أن ذلك لا يعني أن الثلج لم يكن بصفة ملحوظة في جهات المغرب، بل قد يعود صمت هذه المصادر، إلى إعتبار الظاهرة عادية لا تستحق الذكر.[8]

على الرغم من الاشارات المتواضعة ،غير أنها تجمع على طرح واحد متمثل في أن المغرب عرف تساقطات ثلجية مهمة إقتصرت على مرتفعات الجبال خاصة

[1]أحمد بوشرب، دكالة والإستعمار البرتغالي إلى سنة إخلاء آسفي وآزمور (قبل 28غشت 1481-أكتوبر 1541)، مرجع سابق. ص 56.

[2]الوزان .ج1.ص81.

[3]حليمة بنكرعي، العنصر العربي والمجال في مغرب 1459-1541م: بادية الواجهة الأطلنطية نموذجا، مرجع سابق، مرجع سابق. ص 40.

[4]يذكر بن الخطيب بخصوص الأمطار أنها كانت " معدود من الخطوب " بسجلماسة (ص181).بينما كانت عرفت مدينة أنفا "أمطار عصيرها صيبة "(ص158).هذا في الوقت الذي وصف فيه الأمطار بقصر كتامة ب "مسقط مزنة عادية ، وديمة دائمة"(ص149). ابن الخطيب لسان الدين ، معيار الإختيار في ذكر المعاهد والديار ، تحقيق محمد كمال شبانة . مطبعة فضالة .1977م.

[5]يؤثر التوجيه على كمية الأمطار داخل السفوح الجبلية . فالسفوح المواجهة للرياح الرطبة تكون محظوظة من حيث كمية الأمطار بخلاف السفوح التي تقع في ظل المطر المواجهة للتأثيرات الصحراوية.

[6]أحمد بن خالد الناصري ،الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق جعفر الناصري و محمد الناصري، الجزء الرابع، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997م.ص165.

[7]محمد استيتو ،فائدة كتب الرحلات الجغرافية في كتابة التاريخ الإقتصادي للمغرب أنموذج "وصف افريقيا " للحسن الوزان ، المغرب في عهد الوطاسيين من خلال كتاب "وصف افريقيا" لحسن الوزاني ،سلسلة دراسات وأبحاث تاريخية رقم 1، تنسيق ذ محمد استيتو ، منشورات جمعية الحسن الوزان للمعرفة التاريخية ، الطبعة الأولى ،2011،ص45.

[8]محمد حجاج الطويل ، معلمة المغرب ، من أنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر ، المجلد 9،مطابع سلا ،1419/1998.ص2846.

الأطلس بسلاسله الثلاثة. كتلك الدائمة التي شملت منطقة "أمزميز"[1] ناحية مراكش وجبال الريف التي كان **"الثلج يسقط فيها أثناء الشتاء بمقدار عظيم حتى أن القطعان تموت أحيانا من جراء ذلك إن لم تسحب باكرا إلى السهول".**[2]عموما يمكن القول أن الجبال المغربية كانت المكان الطبيعي والعادي لتساقط الثلوج، إلا أن ما يلاحظ من استقرائنا للمصادر وعن فترات مختلفة، أن الثلوج كانت تتجاوز الأماكن التي تعرفها اليوم، أو بعبارة مناخية أن خط الثلج الدائم كان أوسع مما هو عليه الآن[3]، أم كمياته المتساقطة كانت أكبر مما هي عليه الآن، بل إن مناطق جبلية كانت تعرف عواصف ثلجية شبيهة بعواصف المناطق الباردة من الكرة الأرضية. [4]

لقد ساهمت الثلوج التي تبدأ عادة في شهر أكتوبر، في حركية القبائل الموسمية خاصة في فصل الشتاء كما وجهت أنشطتها الفلاحية، هذا في الوقت الذي عملت فيه على عرقلة حجم التبادل التجاري لعدة أسابيع، لاسيما عندما تغمر الثلوج المسالك الجبلية القليلة بالأطلس، والتي تصل الشمال بالجنوب[5]، وتحول دون التنقل ما بين الساحل الرومي (المتوسط)والداخل، لأن الممرات القليلة الموجودة فيها تقع على ارتفاع كبير فتتراكم فوقها الثلوج وتتعرض للعواصف. ذكر الحسن الوزان أحدهما وسماه ممر "بوريش" وقال سمي بذلك لكثرة ثلوجه، ونفس الاسم أطلق على ممر آخر يربط ما بين الصحراء الشرقية والداخل "خنك الغربان" الذي يسمى (الريش) لكثرة ثلجه. لقد ارتبط تنقل القوافل التجارية من السودان وإليه بزوال الثلج من الممرات الجبلية، أو على الأقل توقف تساقطه[6]. إن رداءة أحوال الطقس وإنخفاض درجة الحرارة ، وكثرة الثلوج ، كثيرا ما كانت تفاجئ التجار والمسافرين وغيرهم في آخر شهر أكتوبر [7] فتقبرهم تحت أكوامها حاصدة بذلك أرواحا كثر، كما حدث في شتاء 1515/1514م "بأكلكال"، حيث هلك من البرد (500) خمسمائة نفر من المغاربة المتعاونين مع البرتغاليين .

3. الرياح:

أثرت الرياح بدورها سلبا وإيجابا على الأنشطة الفلاحية والتجارية بالخصوص، اذ تعمل بقوتها على إتلاف النباتات وتمزيقها كما تعمل على تجريد الأشجار من الأوراق و الأغصان وقد تقتلعها من أساسها[98] ، ويزداد إتلاف الرياح للنباتات في المناطق الجبلية المكشوفة ،حيث يقترن ذلك بالتربة الفقيرة وفقدان الحرارة. وقد كانت مدينة تازة تعاني من انخفاض كبير في درجة الحرارة "**بردها لا يصفه واصف**"[10]، حيث تميزت بموقعها الجبلي و قوة رياحها وهذا ما كان يؤثر بشكل كبير على الإنتاج الزراعي العام بالمنطقة، و كذلك مدينة طنجة التي عانت من الظاهرة نفسها .

إستنادا إلى كتاب الحسن الوزان يمكننا تصنيف بعض أنواع الرياح الضرة بالأنشطة والمحاصيل الزراعية النباتية والحيوانية على الشكل الآتي: وهي تلك التي تهب من الشرق ومن الجنوب بالغة الضرر لاسيما في ماي ويونيو، لأنها تفسد جميع الغلات، وتمنع الفواكه من النمو والنضج. وتلك التي تهب في فصل الشتاء عندما يسقط الثلج على سلسلة الأطلس، فتقتل الحيوانات التي تصيبها في هذه الناحية،وتقضي على الناس كذلك. ويضر الضباب كثيرا ،هو أيضا ،بالغلل، لاسيما إذا وقع في وقت الإزهار ودام النهار كله[11]. كما ساد نوع من الغبار يسبب إلتهاب أعين الناس[12] ببعض قصور سجلماسة. لم يسلم النشاط التجاري من الأثر السلبي للرياح بقوة زوابعها المتفاوتة من منطقة إلى أخرى، ففي غير فصل الشتاء ، كانت تهب رياح قبلية تخفي معالم الآبار حتى يتعذر

1الوزان،ج1،ص125.

2عادل النفاتي ، المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغارب : حفريات في أدب الرحلة القرن 16 في الهوية والتدين والثقافة ، افريقيا الشرق – الدار البيضاء. ص80.

3" في سنة ثلاث وعشرين وسبعمئة كانت الأمطار عظيمة ببلاد المغرب وثلوج كثيرة فعدم فيها البياض" . علي ابن أبي زرع الفاسي ،الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطياعة والوراقة – الرباط ،ص412.

4محمد حجاج الطويل، معلمة المغرب ، مرجع سابق ، ،ص2846.

5الوزان،ج1،ص125.

6محمد حجاج الطويل، معلمة المغرب، إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، مطابع سلا،1989م. ص2846.

7محمد استيتو ، الفقر والفقراء في مغرب القرنين 16و17م ،مؤسسة النخلة للكتاب وجدة ، الطبعة الأولى ،2004.ص84.

8يتحدث ابن أبي زرع عن رياح هائلة اجتاحت فاس سنة 724ه ، اقتلعت الحجر من أربع أواقي وأقل وأكثر.الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطياعة والوراقة – الرباط ،ص413. كما يصف ابن الخطيب في معيار الاختيار مدينة طنجة بكون "رياحها لا تسكن إلا في النذور "(ص149). ومدينة تازة ريحها عاصف"(ص182).

9علي البنا ، أسس الجغرافية المناخية و النباتية ، مرجع سابق ، ص260.

10لسان الدين ابن الخطيب السلماني ، معيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار ، مرجع سابق، ص182.

11محمد استيتو ،فائدة كتب الرحلات الجغرافية في كتابة التاريخ الإقتصادي للمغرب :أنموذج "وصف افريقيا" للحسن الوزان. ضمن سلسلة أبحات ودراسات تاريخية رقم واحد :المغرب في عهد الوطاسيين من خلال كتاب وصف افريقيا للحسن الوزان، تنسيق محمد استيتو ، منشورات جمعية الحسن الوزان للمعرفة التاريخية ، الطبعة الأولى .ص44.

12الوزان،ج2،ص126.

العثور عليها ، فيهلك الناس عطشا خاصة التجار القاطعين لفيافي الصحراء الكبرى.[1]

و رغم الآثار السلبية التي كانت تخلفها الرياح نجد منها نوعا نافعا، وهي تلك التي ألمح إليها الوزان بقوله:"**وفي شهر مارس تهب رياح قوية من الغرب والشمال فتخصب الأرض وتزهر الأشجار. وفي أبريل تكاد جميع الفواكه تبتدئ في أخد شكلها بحيث يؤكل حب الملوك في سهول موريطانيا أوائل ماي بل وفي أواخر أبريل**". كما أن الفلاحين توقفوا أحيانا في عملية الدرس على هبوبها، لما لها من أهمية في تسهيل ظروف هاته العملية.

بالإضافة إلى العناصر السابقة هناك عوامل جغرافية أخرى ثابتة لا تتغير[2] لها دورها في الخريطة الزراعية لكل منطقة، ويتعلق الأمر **بدرجة الإرتفاع عن سطح البحر والتيارات البحرية ،والموقع بالنسبة لخطوط العرض** -الذي يؤثر كذلك في حركية الرياح-، إذ يعتبر موقع بقعة معينة و موضعها من العناصر المساعدة على النشاط الزراعي والعكس صحيح، لهذا نجد معظم المصادر الجغرافية تحدد موقع القرى والمداشر والمدن التي تروم وصفها، قبل الحديث عن الإنتاج الزراعي، وهو السبيل الذي اقتفاه الحسن الوزان ثم من بعده مارمول كربخال وقبلهما ابن الخطيب.

بناء على ما سبق، وعلى ما قدمه **لحسن الوزان** في مؤلفه **وصف افريقيا**-على اعتبار أنه وظف عوامل المناخ وحركة الرياح والتغيرات الناجمة عنها ، وحدود الفصول ومميزاتها ، لإبراز انعكاساتها المختلفة على المجال والانسان والإنتاج-؛ تبدو خريطة المناخ[3]، في عصر الوزان، كما هي اليوم تقريبا، تكثر التساقطات بأنواعها في المناطق الساحلية وفي المرتفعات(باستثناء سنوات القحط)، وتشح تدريجيا نحو الجنوب والجنوب الشرقي، وتتعد النطاقات المناخية المحلية التي تساهم مع عامل التضاريس في تنوع مجالات الغطاء النباتي والغابوي التي تستغل للرعي وتوفير مواد أولية للحرف والمهن وللتجارة والصيدلة ، كما تسهم في تنوع الانتاج الزراعي، وتفاوت مواسم الجني أو الحصاد التي تبدأ عادة مبكرة في الجنوب، وتستغرق مواسم جني المنتجات الشجرية ،خاصة، طوال ثمانية أشهر من السنة الفلاحية تقريبا ، تستهل بموسم جني **الكرز** في أواخر أبريل وتختتم بجني **الزيتون** في نونبر[4] . وانقلابات الفصول،بحيث يبتدئ فصل الشتاء والبرد في كل بلاد البربر تقريبا بعد منتصف أكتوبر ويستمر في دجنبر ثم يشتد البرد في يناير. غير أن الجو يتقلب خمس أو ست مرات في اليوم، كما تحدث في فصلي الشتاء والربيع أحيانا عواصف مصحوبة بالبرد والصواعق والبرق، وأحيانا أخرى تسقط الصواعق في عدة أماكن من البلاد. وتكون بداية الصيف في التاسع عشر من ماي وينتهي في السادس عشر من غشت وتكون الحرارة شديدة لاسيما في شهري يونيو ويوليوز.[5]

- **الخصائص الطبيعية:**

إن معرفة الطبوغرافية والتضاريس من الأمور الأساسية لفهم أنماط سلوك السكان وتاريخهم والأهم أنشطتهم الإقتصادية، إذ لا يمكن دراسة السكان بمعزل عن الإطار الجغرافي ، بالنظر للارتباط الوثيق بينهما. وكما هو متفق عليه أن تنوع التضاريس لا ينعكس فقط على المناخ وحركة الرياح وتوزيع التساقطات والغطاء النباتي ، بل ينعكس أيضا على أنماط العيش و الأنشطة الإقتصادية وطباع الناس، وعلى عاداتهم وأعرافهم ومن تم بنيات عقلياتهم . فلا غرابة إن وجدنا التضاريس والمعطيات المناخية تحدد وتوجه نشاط الإنسان والتربة والشبكة المائية تفرضان توجها فلاحيا معينا ، والإنسان بمهارته يحاول التأثير على شكل المعطيات ، والتكيف معها، والإستفادة منها،وهو الأمر الذي لا نراه كثيرا في المغرب الوطاسي، وإن كانت الحاجة والخصاصة متفشية .

تتنوع الخصائص الطبيعية للمغرب ، فلكل جهة خصائص تمتاز بها عن باقي الجهات الأخرى.

1. التضاريس والتربة:

تتسم تضاريس المغرب بالتنوع كما التباين، وتنقسّم إلى خمسة وحدات أساسية: ألا وهي الأراضي الساحلية المنخفضة، والسهول، وسلسة جبال أطلس، ثم الصحراء. ووفقا لهذا التباين والتنوع تتفاوت جودة الأتربة. لقد جاءت الأوصاف المتعلقة بها في النصوص التي توقفنا عليها تحت إسم الأرض، بمعنى مصادرنا تخلط بين عبارتي التربة والأرض، إذ نجدها تورد الأراضي الصالحة

---

[1] محمد استيتو ،فائدة كتب الرحلات الجغرافية في كتابة التاريخ الإقتصادي للمغرب :أنموذج "وصف افريقيا" للحسن الوزان، مرجع سابق ،ص 45.

[2] يجب أن نفرق بين العناصر (الحرارة والرطوبة والتساقطات والرياح ..) التي يتألف منها المناخ ، وبين العوامل (الموقع بالنسبة لخطوط العرض ودرجة الارتفاع عن سطح البحر والتيارات البحرية ..) التي تؤثر فيه . فالعناصر تتغير تغيرا دائما حسب العوامل التي تؤثر في المناخ أما هذه الأخيرة فهي ثابتة لا تتغير.

[3] ان مناخ المغرب يندرج ضمن خصائص المناخ المتوسطي المتميز بعدم انتظام التساقطات ، وظهور فصلين :حار وجاف صيفا .ودافئ ومطير شتاء .تلك هي الخصائص المناخية التي سماها ابن خلدون "مزاج المتوسط". عبد الهادي البياض ، مرجع سابق ،ص14.

[4] محمد استيتو ، الفقر والفقراء، مرجع سابق. ص ص 33-34.

[5] عبدالهادي البياض ، المناخ والمجتمع بالمغرب والأندلس خلال عصر الوسيط إسهام في دراسة الطقوس والذهنيات، مرجع سابق،ص14.

عوض التربة الصالحة للزراعة، وتندرج ضمن التدخلات بين العبارات والمصطلحات الواردة في المصادر التاريخية.

أما بخصوص الوحدات التضاريسية، فا**لوحدة الأولى** تتمثل في **الأراضي الساحليّة المنخفضة**، والتي تمتد على طول سواحل البحر الأبيض المتوّسط وسواحل المحيط الأطلسي، وترتفع هذه الأراضي تدريجيا من الساحل الأطلسي لتكون هضبة، تمتد بإتجاه الجبال (جبال الأطلس)، حيث تتعدد الأنهار وتتوفر الأراضي الخصبة.

الوحدة الثانية من أقاليم تضاريس المغرب **"السهول"،** وسهول المغرب تقع بين جبال الأطلس الثلاثة من جهة والمناطق الساحلية المذكورة من جهة ثانية،صنفها كل من مارمول كربخال والحسن الوزان إلى صنفين، صنف أول يضم السهول المواجهة للمحيط الأطلسي والمطلة على المتوسط والتي أصطلح علي تسميتها في الجغرافية المعاصرة ب "السهول الساحلية". والصنف الثاني يضم السهول والتلال الممتدة بين جبال الأطلس الكبير والصغير[1]، والتي نسميها اليوم بالسهول الداخلية. أما بالنسبة للسهول الساحلية الأطلسية ، فتتميّز بجودة تربتها وارتفاع مردوديتها، أجودها ما امتد بالواجهة الأطلنتية ، كما هو الحال بالنسبة لناحية الهبط والتي قال في حقها الوزان، **"هذه الناحية عجيبة حقا بسبب خصوبتها ووفرة إنتاجها، معظمها سهل تخترقه مجاري مياه عديدة[2].** مرورا بمنطقة أزغار، إلى تامسنا التي شكلت خلال القرن 16م منطقة شاسعة جدا ومتنوعة المجال الجغرافي: مجال واسع ومتكامل يضم أراضي زراعية تشمل السهول ،و أراضي رعوية تضم المرتفعات. وصولا، الى سهل دكالة شديد الإنبساط حتى إن أقل ارتفاع به يبدو كبيرا يسمى جبلا ، لقد وصف **ابن قنفد**[3]انبساطه بقوله : **"هي أرض مستوية[..] وليس بها شعاب ولا خنادق ولا جبال، إلا البسائط المستوية "**[4].

أما بخصوص السهول الساحلية المتوسطية، فقد أشار الوزان إلى خصائصها الطبيعية "فتربتها طيبة تنبت كمية عظيمة من الحبوب والفواكه الجيدة، وتجري بين هذه التلال وخلال هذه السهول جميع الأنهار التي تنحدر من الأطلس لتصب في البحر المتوسط .أما مارمول فقد دقق في توصيف أصناف الحبوب التي تنتجها هذه السهول فذكر أن:**"الأرض لا تنتج الكثير من القمح فساحل البربر المسمى بالريف حيت تنتهي جبال الأطلس الصغير يغطي بالرطوبة أكثر من الحرارة فلا يجعل بسبب ذلك قمح كثير، ولكن في المقابل ينتج كمية من الشعير تتغدى بها هذه القبائل".**[5] فضلا عن هاته السهول الساحلية، نجد سهول داخلية أو "القارية"؛ منها على سبيل المثال : سهل سايس الذي وصفه **الوزان**، بكون أراضيه ممتازة ،لكنها تنتج قمحا أسودا صغيرا[6].عموما تركزت أخصب السهول بين الأطلس والمحيط، كناحية مراكش وإقليم دكالة، وجميع تادلا وتامسنا مع أزغار الى مضيق جبل طارق، واعتبر سهل تامسنا زهرة الناحية كلها لأن مردوديته تبلغ خمسين ضعفا.

أما **الوحدة الثالثة** متمثّلة في سلسة جبال الأطلس، و تقسم إلى سلسلتين: السلسة الأولى هي السلسة الساحلية التي تمتد على البحر الأبيض المتوسط وتسمى "جبال الريف"، وتقع في شمال المغرب، وتمتد على شكل قوس واسع من مضيق جبل طارق حتى تصل إلى نهر ملوية، تشمل **"أرض وعرة مليئة بجبال شديدة البرودة، وهذه الجبال منتجة حيث تنبت الحبوب والفواكه ، لكن محصول القمح فيها قليل، ومغطاة بغابات كثيرة فيها أشجار باسقة مستقيمة تماما"**[7]، تأوي الكثير من الحيوانات النافعة والضارة. يضيف مارمول حول خصائص هذه الجبال **"الأرضصالحة جدا لرعي الماشية لأن الكلأ ينبت فيها بغزارة، وهناك أيضا عدة أماكن للوقاية من حرارة الشمس في الصيف ، لكن الثلج يسقط فيها أثناء الشتاء بمقدار عظيم حتى أن القطعان تموت أحيانا من جراء ذلك إن لم تسحب باكرا إلى السهول.**[8]

أما فيما يخص السلسلة الثانية "جبال الأطلس" وهي الأكثر إرتفاعا من السلسلة الشمالية، يصفها الوزان كالآتي: **"والأطلس شديد البرد كثير الجدب، لا ينبت فيه القليل من الحبوب وتكسوه غابات بنفس الدرجة، إذ أن هناك أماكن يمكن أن يقال بأنها معتدلة وصالحة ليتخذ منها الإنسان مساكن حسنة للغاية[...] والمناطق الغير مسكونة أما قارسة البرد وأما شديدة الوعورة"**[9]. تضم هذه السلاسل: جبال الأطلس الكبير، وجبال الأطلس المتوسط، وجبال الأطلس الصغير أو الأطلس الصحراوي، توجد داخل المغرب، وتمتد من جنوبه الغربي حتى شماله

[1]عادل النفاتي، المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغارب : حفريات في أدب الرحلة القرن 16 في الهوية والتدين والثقافة ، افريقيا الشرق – الدار البيضاء، ص82.
[2]الوزان ، ج1،ص306.
[3]ابن قنفد أحمد بن الخطيب القسنطيني: أنس الفقير وعز الحقير ، تحقيق ونشر محمد الفاسي وأدولف فور ، الرباط 1965.
[4]بوشرب ،دكالة والاستعمار البرتغالي ، مرجع سابق .ص50.
[5]عادل النفاتي، نفسه. ص82.
[6]الوزان،ج1،ص299.
[7]الوزان ، ج1 ، ص324.
[8]عادل النفاتي ، المجتمع والجغرافية الثقافية لبلاد المغارب : حفريات في أدب الرحلة القرن 16 في الهوية والتدين والثقافة، مرجع سابق، ص80.
[9]نفسه، ص81.

الشرقي. لم يكن في هذه المناطق الجبلية الوعرة باعث على وجود الانسان إلا في حدود ما يسمح به عاملا التضاريس والإرتفاع لشدة الانحدارات ووعرة المسالك والممرات، ولكثرة الثلوج وقساوة البرد كما فسر ذلك الوزان، مما جعل الرقع القابلة للإستغلال ضيقة، وتتطلب جهودا مضنية من أجل استصلاحها و إعدادها للإستغلال، والمحافظة على تربتها من الإنجراف والدفاع عنها من الغاضبين، لاسيما بسبب الضغط الديمغرافي[1].

أما **الوحدة الرابعة** فهي "الصحراء" الممتدة من الشرق إلى الجنوب على إمتداد جبال الأطلس، وهي إقليم صحراوي تتمركز فيه بعض الواحات المتناثرة ذات كثافة سكانية محترمة. يشغل مشهدا طبيعيا شاسعا ابتداء من السفوح الجنوبية لجبال الأطلس، حيث تندر التساقطات ويتدرج الجفاف ومظاهر التصحر، فتطغى الرتابة وتضعف الموارد إلى أن تصبح الحياة شبه مستحيلة في القفار إلا نادرا جدا. فبإستثناء الواحات[2] يكاد باقي المشهد ينطبق عليه وصف **الوزان** لقصر السويهلة، الذي جاء فيه؛ **"ولا شيء حوله سوى لعنة الله .فليس هناك حديقة شجر ولا خضر ولا زرع، ولا أثر لأية حياة، وإنما هي الحجارة السوداء والرمال.**[3]

لقد توقفت المردودية في المغرب الفترة المدروسة على المعطيات الطبيعية السابقة الذكر خاصة التشكيلة التضاريسية ومكوناتها الرئيسية من مناخ وتربة، ويعلق ابن خلدون في مقدمته مؤكدا على أهمية العنصرين معا **:"اعلم أن هذه الأقاليم المعتدة ليس كلها يوجد بها الخصب ولا كل سكانها في رغد من العيش ، بل منها ما يوجد لأهله خصب العيش من الحبوب والأدم والحنطة والفواكه لزكاة المنابت واعتدال الطينة ووفور العمران ، وفيها الأرض الحرة التي لا تنبت زرعا ولا عشبا بالجملة فسكانها في شظف من العيش"**[4]. وفي عبارة أخرى نجده يصرح بأن **"إفراط الحر يفعل في الهواء تجفيفا ويبسا يمنع من التكوين لأنه إذا أفرط الحر جفت المياه والرطوبات وفسد التكوين في المعدن والحيوان والنبات[..] إلى أن يفرط البرد في شدته فينقص التكوين ويفسد بيد أن فساد التكوين من جهة الحر أعظم فلذلك تفاوت العمران في أرجاء المعمورة."**[5]

هكذا إذا كانت معالم تضاريس المغرب، لكن ما يجب التوقف عنده هو أن الأنشطة الفلاحية كانت تخضع لمنطق هذه الأشكال التضاريسية ، دون أن يكون أي تدخل من طرف العنصر المغربي إلا نادرا، فالمناطق المرتفعة تتعاطى خاصة لتربية الماشية ، كما توجد بها أشجار مثمرة، أما التلال فكانت تحمل الكروم خاصة، كما كانت بها الحقول وتقام بها بعض الزراعات ، أما الأودية فيتعاطى فيها للزراعة وتربية الماشية من أبقار وخيول، إضافة الى تعاطي أهلها للزراعات الشجرية المثمرة .أما المناطق السهلية فكانت تزرع بها الحبوب والقطاني من فول وعدس ، وكذلك الكتان ، كما كانت تربي الماشية ، وهذه المناطق السهلية كانت تعيش تحت رحمة المغيرين البرتغال، مما جعل أهلها إما أنهم يستسلمون للبرتغال ويتعاطوا لنشاطهم المعتاد في أمن وأمان، وإما أن يهاجروا، ويعتصموا بالجبال المجاورة. ويقتصروا على ممارسة أنشطة فلاحية في غير محلها، مما أثر بشكل عام على المردودية، كيف لا والمغرب يتوقف في معاشه على ما تنتجه الأرض في انتظار سخاء الطبيعة المتكرر، بالنظر إلى نمط الإنتاج العتيق السائد.



[1]محمد استيتو ،فائدة كتب الرحلات الجغرافية في كتابة التاريخ الإقتصادي للمغرب :أنموذج "وصف افريقيا" للحسن الوزان، مرجع سابق ، ص35.

[2]يذكر البكري أن مدينة سجلماسة :"مدينة سهلية أرضها سبخة حولها أرباض كثيرة ...فإذا قرب من سجلماسة تشعب نهرين يسلك شرقيها وغربيها " البكري أبو عبيد الله ، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب ، دار الكتاب الإسلامي ، القاهرة، ص148. وتبدو شهادة الوزان مشابهة إلى حد بعيد سابقه البكري .

[3]نفسه، ص ص35-36.

[4]عبدالرحمن ابن خلدون، المقدمة ،الجزء الأول ، مرجع سابق ،ص399.

[5]نفسه،ص353.



الحسين نوحي
طالب باحث في الجنوب المغربي



الوجود الفرنسي بمجال أقا: المسار والمقاومة

الملخص:

لقد كانت مرحلة المقاومة وجيش التحرير بالجنوب المغربي وتحديدا بمجال أقا، مرحلة تاريخية بارزة بصمت تاريخ المنطقة، حيث شكلت فيها مقاومة المستعمر الفرنسي خلال الثلاثينات من القرن العشرين نقطة تحول في المجال، إذ ساهمت المنطقة بدورها في نسج تاريخ بطولي للمنطقة كما هو الحال للتاريخ البطولي المغربي في مقاومة الإستعمار، كما شكلت كذلك مرحلة جيش التحرير بالمنطقة نقطة بارزة كذلك في مسارها الكفاحي البطولي، إذ احتضنت مقر جيش تحرير الجنوب المغربي، ومنها إنطلقت عملياته العسكرية نحو باقي مناطق الجنوب.

كل هذه الأدوار التاريخية جعلت مجال أقا يدخل التاريخ المعاصر ويساهم في بدوره في مسيرة النضال الوطني لتحرير الأرض والإنسان من الإستعمار الأجنبي الغاشم، إذ لم تقتصر مقاومة المنطقة في ماهو عسكري بالسلاح، بل ساهمت المقاومة كذلك في نضال سلمي تمثل في مشاركة ساكنة أقا ونواحيها في المسيرة الخضراء المظفرة لسنة 1975، والتي كانت محطة من محطات الكفاح الوطني من أجل إستكمال الوحدة الترابية للإقاليم الجنوبية الصحراوية للإيالة المغربية الشريفة.

تقديم.

بسم الله الرحمن الرحيم، والصلاة والسلام على سيدنا ونبينا محمد وعلى أله وصحبه ومن ولاه. في البداية أولا ومصداقا لقوله صلى الله عليه وسلم " من لم يشكر الناس لم يشكر الله". يطيب لي خاطري أن أتقدم بخالص الشكر والإمتنان والتقدير لطاقم مجلة ليكسوس العلمية، ممثلا في شخص مديرها الأستاذ الباحث محمد أوبيهي، فشكرا لهم ولمقامهم العلمي هذا، سائلين الله عزوجل دوام العطاء والإزدهار لهذه المجلة القيمة.

يعتبر موضوع المقاومة المغربية ضد الإستعمار الأجنبي الفرنسي والإسباني، من المواضيع التي لا تزال بكرا في البحث في التاريخ المعاصر المغربي[1]، خصوصا منها مرحلة جيش التحرير المرتبط بما بعد الإستقلال[2]. إن دراسة هذا التاريخ المفصلي من التاريخ المغربي الطويل، يقتضي سبر أغوار التاريخ السياسي الحدثي المعروف بالمؤلفات

[1] هذه الفترة التاريخية لا تزال تشكل إشكال كبير في البحث الأكاديمي، بالرغم من الإختلاف الكبير في التحقيب الزمني الحاصل فيها، إذ هناك من الباحثين من يحدد بدايتها مند الثورة الفرنسية سنة 1789م وهناك من يحددها في بداية الثورة الروسية سنة 1917م...

[2] هذه المرحلة لا تزال غامضة (1956-1970) بالرغم من غزارة الإنتاج العلمي فيها خصوصا إنتاجات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير.

الكلاسيكية القديمة[1]، بل يتقضي ذلك أيضا توسيع مجال البحث ليشمل دراسة الجوانب الإجتماعية والإقتصادية والدينية والذهنية، في إطار إنفتاح المؤرخ على العلوم الأخرى وكذا الإلمام أكثر بالموضوع، إذ هذا المنهج هو الكفيل الوحيد بتوسيع دائرة البحث حول الموضوع المذكور أنفا.

إذا كان هذا هو حال الرصيد المكتوب حول الموضوع وطنيا، فإنه بالمقابل نجد مجال الجنوب المغربي[2] لا يختلف كثيرا عن هذا الحال. فتاريخ المقاومة بالمجال لم يعرف بعدا إشباعا علميا يشفي الغليل، فبالرغم من أهميته في النضال الوطني خصوصا في المرحلة التي سبقت فرض الحماية على المغرب[3]، وكذا دوره الكبير في تأسيس جيش التحرير بالجنوب[4] وما قدمه من "تضحيات بالرغم من الإضطرابات التي ساهمت في تغيير مساره على الأرض"[5]، فضلا عما عرفه هذا الأخير من تحديات وإكراهات في المدد والسلاح[6]، (بالرغم) من ذلك فإن هذا التاريخ لا يزال مجال واسعا للبحث، إذ مادته الخام (وثائق محلية، أرشيف أجنبي، وثائق مخزنية، شهادات المقاومين...) كفيلة بإستثمارها لتوفير كم غزير من الإنتاج العلمي في هذا الباب، ولعلى هذا هو ما حذا بنا في هذه المقالة العلمية إلى إبراز جوانب من هذا التاريخ البطولي للجنوب المغربي، وتحديدا بمجال من مجلات الأطلس الصغير الشرقي، وهو مجال أقا ومساهمته التاريخية في مسار مقاومة الإستعمار الفرنسي في تاريخ المغرب.

[1] نقصد بها كتب حوليات التاريخ السياسي المهتمة بتاريخ السلاطين والمعارك، والتي تركز على المركز المخزني وإغفال الأطراف والهوامش.

[2] نقصد بالجنوب المغربي في كل أعمالنا المجالات التالية: سوس، درعة، الصحراء.

[3] نقصد بها معاهدة 30 مارس 1912، أو كما تسمى بمعاهدة فاس وبموجبها تم إحتلال المغرب من طرف فرنسا بفرضها نظام الحماية، وهو إستعمار غير مباشر.

[4] محمد بن سعيد أيت إيدر، **وثائق جيش التحرير بالجنوب المغربي 1956-1959**، نشر مركز بن سعيد أيت إيدر، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 2011، ص.17.

[5] الحسين نوحي، **تاريخ المقاومة جيش التحرير بواحات الجنوب المغربي: واحة أقا بطاطا نموذجا**، بحث لنيل الإجازة في شعبة التاريخ، كلية الآداب، أكادير، 2015، ص.24.

[6] محمد بن سعيد أيت إيدر، م.س، ص.17.

1.وضعية الجنوب المغربي قبيل الحماية (مجال سوس نموذجا).

خلال فترة القرن الميلادي التاسع عشر المتسمة بتحولاتها العميقة[7]، والتي أخذ فيها الوضع العام للمغرب يتجه نحو التراجع والضعف، كان لمجال الجنوب المغربي نصيب من أثار هذه التحولات على المنطقة، خصوصا خلال العهد الحسني الذي تميز فيه المخزن بالضعف في أطرافه والتي منها السوس الذي يقتصر تدبيره على سواعد أهله، إذ "**من عادة السوس الأقصى من وادي ولغاس إلى الساقية الحمراء خلوه من أحكام السلطان، أن يعينوا لمن يباشر أمورهم والفصل بينهم عوارف يسمونه النفاليس**"[8]، غير أن هذا الغياب لم يطل ليعود الحضور والإشعاع المخزني بقوة للمنطقة بعد حركتي المولى الحسن الأولى لسنتي 1882م و 1886م[9].

خلال أواخر العهد الحسني سيتأثر السوس بتداعيات الضغط المخزني تحث ضربات الإمبريالية الأوربية[10]، حيث ما إن عاد المولى الحسن بعد حركته لمراكش حتى تغيرت الأحوال بالسوس، وفي هذا الصدد يقول المؤرخ الإكراري "**لما رجع المولى الحسن إلى مراكش قام أهل سوس من واد سوس إلى واد ماسة على ساق واحدة ليمحوا من فيه رائحة المخزن فهدموا ديار القياد بهشتوكة وهوارة(...) وجعلت القبائل في الفتن يأكل القوي الضعيف، فإشتعل البارود في كل جهة ...**"[11]، وحتى مجال أقا بدوره لم يسلم من هذه الفوضى العارمة في السوس[12]، وهذا كله جعل السوس يخرج عن طاعة المخزن بعد أن تخربت القبائل

[7] نقصد بها مرحلة الضغط الأوربي على المغرب، سواء الضغط العسكري أو المالي أو الدبلوماسي (إضطرار المغرب لإعتماد سياسات الإصلاحات).

[8] محمد بن أحمد الإكراري، **روضة الأفنان في وفيات الأعيان وأخبار العين وتخطيط ما فيها من عجيب البنيان**، تحقيق: حمدي أنوش، مطبعة المعارف الجديدة، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية، الرباط، 2009، ص.107.

[9] جاءت حركتي المولى الحسن الاولى من أجل تمهيد وإخضاع السوس لسلطة المخزن، بعد طال غيابه عنه مدة طويلة.

[10] فشل مسألة الإصلاح الحسني وأثاره على المركز والأطراف.

[11] الحسين نوحي، **تدبير السلطة بالسوس الأقصى من خلال كتابات المختار السوسي: الجزء الثالث عشر من المعسول نموذجا**، 2016، ص.39.

[12] المختار السوسي، **خلال جزولة**، الجزء الثالث، مطبعة فضالة، المحمدية، 1963، ص.44.

على يد القياد[1]، ليدخل بذلك الجنوب مرحلة حاسمة ومختلفة تماما خلال العهد الحفيظي والعزيز، لاسيما بعد أن دخل الأخوين في صراعهما على الحكم فتنوسي السوس فدخله السوس[2].

2.سوس والإستعمار الأجنـــبي:

بعد وفاة المولى الحسن الأول 1894م ودخول المولى عبد الحفيظ وأخيه عبد العزيز في صراع حول الحكم، سنحت الفرصة للإمبرالية الأوروبية للإنقضاض على المغرب بشكل مباشر، والتي ترجمت بإقرار معاهدة الحماية الفرنسية مع السلطان عبد الحفيظ سنة 1912م، ليتوالى بعدها مسلسل الإحتلالات الفرنسية للمجلات المغربية والتي منها مجال الجنوب المغربي وخصوصا سوس، غير أن الجنوب بقي مجالا مستعصيا على المستعر لإخضاعه وتركيع المقاومة به، بل إن مقاومة الجنوب تزعمت الجهاد لمواجهة التسرب الفرنسي في الأراضي المغربية الجنوبية مند بدايته، وذلك "**في الوقت الذي إزداد فيه الزحف الفرنسي على الأقاليم الصحراوية، إنطلاقا من توات شرقا والسنغال جنوبا، أرسلت القبائل الصحراوية بإتفاق مع ماء العينين وفدا للسلطان بفاس، حيث طلبت منه التدخل لدي الفرنسيين ليكفوا عن تسربهم في تلك القبائل أو تزودها بالسلاح وإرسال من ينسق جهادها ضد المتدخلين**"[3].

لقد كان الشيخ الهبة أول من وقعت عليه هذه القيادة للجهاد، حيث كان "**يزور مراكش ليتزود بالمؤن والمال والسلاح، ففي سنة 1887 زار مراكش واعتنى به أحمد بن موسى ورجع لمقره مملوء الحقائب موفور الرغائب**"[4]، كما أن مقاومة الجنوب واجهت المستعمر بالقوة بعد دخوله المغرب، بزعامة أحمد الهيبة الذي زحف من سوس حتى دخوله مراكش دخولا إهتز له العالم بدخوله لعاصمة الجنوب[5].

عندما ثم إخماد حركة الهيبة بعد واقعة سيدي بوعثمان[6]، بقي الجنوب مقاوما وحتى في عز العهد الحفيظي سيسارع المستعمر لإستغلال الإصلاحات على الجيش المغربي[7]، حيث طلب الكولونيل مانجان في هذا الإصلاح من السلطان "**وضع نظام تشكل به القبائل شريط من الحماية ضد الهجومات التي تأتي من الجنوب**"[8]، غير أن سياسة المقيم العام ليوطي تجاه الجنوب المثلة في تشجيع الهجرة منه لمدن الشمال والمتسمة بخلفياتها الإستعمارية[9]، فضلا عن إشراك القواد الكبار في الأطلس وسوس في إخماد هذه المقاومة[10]، سيعجل بإخضاع المجال وإخماد حركة المقاومة الجنوبية كأخر مقاومة مغربية للمستعمر، وذلك كله في إطار السياسة الإستعمارية المعروفة **بالتهدئة** سنة 1930[11]، مما فتح الباب للمستعمر الفرنسي للزحف نحو باقي المناطق الجنوبية إنطلاقا من مجال سوس.

3.التغلغل الإستعماري بمجال أقا: الدوافع والغايات.

لم تكن أنظار المستعمر الفرنسي بالجنوب المغربي مقتصرة على إخضاعه فقط، بل تجاوزته إلى كشف النوايا الإستمارية الحقيقية الساعية لتمديد نفوذها لباقي المناطق المجاورة لإستغلال خيراتها[12]. فمجال أقا بدوره كان محط أنظار هذه الأطماع، والتي حفزت المستعمر للتوجه نحوها بعد أن إستقام له الأمر بقاعدة سوس

---

[1] محمد بن أحمد الإكراري، م.س، ص.124.

[2] شفيق أرفاك، "وحدة المخزن وتدبير الجهة"، محاضرات السداسي السادس، سلك الإجازة، كلية الأداب، 2014-2015، أكادير.

[3] علال الخديمي، **التدخل الأجنبي بالمغرب 1889-1910: حادثة الدار البضاء وإحتلال الشاوية**، إفريقيا الشرق، الطبعة الثانية، 1994، ص.194.

[4] عبد القادر بن محمد بناني، **تلخيص ما عليه المعمول في أخبار من بالمغرب من الدول**، مخطوط الخزانة الوطنية، رقم 10273، ص،ص.72-71. نقلا عن علال الخديمي.

[5] المختار السوسي، **المعسول**، الجزء الرابع، مطبعة فضالة، المحمدية، 1963، ص.139.

[6] لمزيد من التعمق حول مسار مقاومة أحمد الهيبة ينظر الصفحات من 101-187 من المعسول في جزئه الرابع.

[7] عبد القادر الشاوي، **السلفية الوطنية**، مؤسسة الأبحاث، بيروت، 1985، ص.35.

[8] عبد اللطيف عوام، "إعلان الحماية على مدينة أزمور"، مجلة المناهل المغرب زمن الحماية، مطبوعات وزارة الثقافة، العدد،89.90، يونيو 2011.

[9] لكبير عطوف، **الهجرات العالمية والمغربية قضايا ونماذج مقاربة سويو تاريخية (1045-2011)**، طباعة ونشر سوس، جامعة إبن زهر، الطبعة الثانية، 2013، أكادير، ص.54.

[10] عبد القادر الشاوي، م.س، ص.65.

[11] لكبير عطوف، م.س، ص.86.

[12] ألبر عياش، حصيلة السيطرة الإستعمارية للمغرب خلال القرن العشرين،

المخزنية تارودانت[1]. فقد تعددت غايات هذا الزحف للمنطقة ودوافعه والتي نذكر منها:

-أهمية المنطقة التجارية بإعتبارها حلقة تجارية في الطرق التجارية الصحراوية (المسالك التجارية الصحراوية)، وأهميتها في التجارة الصحراوية، "**حيث كان يتوافد على أسواقها الذهب والعبيد والجلود ومنتوجات أخرى من بلاد السودان...**"[2]، وكذا وجود أسوق تجارية هامة بالمنطقة لها إشعاع تجارية بمجال أقا عامة[3].

-القرب الجغرافي للمنطقة من مدينة تندوف التجارية المزدهرة مند القرن التاسع عشر، والتي تحولت إليها ثروة أقا وتوزنين إليها[4]، ما أعطى للمنطقة أهمية إستراتيجية يُمكِن من الوصول لهذه المدينة إنطلاقا من هذه الجهة"[5].

- أهمية المنطقة الفلاحية خصوصا البعد الواحي للمنطقة وكذا أهمية قرب المنطقة من سهل درعة الغني والخصب، لما يوفره من منتوج فلاحي في الزرع، يقول البحاثة شفيق أرفاك أن فرنسا كانت تقول (هنا مستقبل المغرب) في إشارة منها لسهل درعة[6].

4.التواجد الفرنسي بأقا: مساره ومظاهره:

أ: مسار الإستعمار الفرنسي لمجال أقا.

بعد الوجود الفعلي للمستعمر الفرنسي بسوس،إنطلقت جيوشه لتخترق السهل والجبل، وإتجهت إلى الوصول لما وراء جبل الأطلس الصغير، تحديدا لمجالي أقا وطاطا، والذي كان عبر محطات ومراحل مختلفة وهي:

-من تارودانت نحو إيغرم بالأطلس الصغير، والتي بنى بها تكنة عسكرية لا تزال أثارها بادية إلى اليوم، فهذا المعبر ترسخ في الذاكرة الشعبية بطاطا وإداوكنسوس، إذ تحتفظ هذه الذاكرة بمكانته، يقول احد البحاثة أرفاك حين لقائه أحد الشيوخ بطاطا عندما سئله من أين جاء الإستعمار لطاطا فرد بقوله :(من هنا جاء الإستعمار ومنه جاء الإسلام)[7].

-من مركز إيغرم نحو إسافن نايت هارون، ومنها إتجه نحو تيزكي إداوبلول والتي بقي فيها مدة، وبنى بها مركزا إستقر به الفرنسيون لحين شق الطريق منها نحو باقي المناطق في إتجاه أقا[8]، وفي الحقيقة نجهل كثيرا عن تفاصيل الوجود الفرنسي بهذه المناطق خصوصا بإسافن، بالرغم من المحاولات للنبش في هذا الموضوع (نموذج الباحث الحفيظ الإدريسي: إسافن على عهد الحماية لم يكتب له إتمام الموضوع).

-العبور لمجال أقا من وادي إمي أوماغا، وذلك عبر تشييد طريق وأبراج المراقبة على طوله[9].

-دخول القوات الفرنسية لمجال أقا عبر ممر إخف أمجوض ومنه لأقا سنة 1934م، وذلك بعد سنتين من إنعقادها مع قبيلة بونعيلات بطاطا[10].

-إستغلال الإتفاقية التي وقعها القائد إبراهيم بن بلعيد المريبطي التزونيني[11] في فجر الإحتلال بإيغرم بإداوكنسوس مع القوات الفرنسية[12]، والتي تنص على دعمه بالسلاح لمواجهة تمرد القبائل ضده مقابل الإشتراط عليه بدخول فرنسا المنطقة بعد عام من توقيع هذه الإتفاقية[13].

ب:أســـاليب المستعمر الفرنسي بمجال أقـــا.

كغيرها من المناطق التي أخضعها الفرنسيون بالمغرب وجنوبه، إعتمد المحتل كذلك أساليب إستعمارية لإستغلال المنطقة وتقوية الوجود الفرنسي بأقا، ومن هذه الأساليب التي حفظتها الذاكرة المحلية بالمنطقة نجد:

-أسلوب الإتفاقيات مع القائل من أجل شرعنة الإحتلال وإخضاع القبائل.

---

[1] الحسين نوحي، تاريخ المقاومة وجيش التحرير بواحات الجنوب المغربي: واحة أقا بطاطا نموذجا، م.س، ص.38.

[2] شارل دوفوكو، **التعرف على المغرب 1883-1834**، الرحلة الأولى، ترجمة: المختار بن العربي، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، الطبعة الاولى، 1999، ص.102.

[3] المختار السوسي، **خلال جزولة**، م.س، ص.77.

[4] شارل دوفوكو، م.س، ص.102.

[5] ينظر بهذا الخصوص: إبراهيم نوحي: الطريق إلى تندوف يمر من أقا، مقال منشور.

[6] شفيق أرفاك، "وحدة المخزن وتدبير الجهة"، م.س.

[7] شفيق أرفاك، "وحدة المخزن وتدبير الجهة"، م.س.

[8] الحسين نوحي، تاريخ المقاومة بواحات الجنوب المغربي: واحة أقا بطاطا نموذجا، م.س، ص.39.

[9] ينظر هوامش: الحسين نوحي، تاريخ المقاومة بواحات الجنوب المغربي: واحة أقا بطاطا نموذجا ، م.س، ص.38.

[10] العربي نوحي، أحد أعيان قبيلة أيت أمرييط،

[11] ينظر حول هذا القائد (المختار السوس، **المعسول**، الجزء التاسع عشر، ص.256).

[12] المختار السوسي، **المعسول**، الجزء التاسع عشر، مطبعة فضالة، المحمدية، 1963، ص.256.

[13] الحبيب أمزي، أحد أعيان قبيلة أيت أمرييط، 1926، 01 فبراير 2015، أقا.

-سياسة التخويف للسكان، وذلك من خلال أعداد الجيوش التي دخل بها المحتل المنطقة.

-تجريد السكان من أسلحتهم بمساعدة شيوخ القبائل وتحويلهم لعمال يشتغلون لدى الاحتلال.

-فرض ضرائب على السكان وإستغلالهم بالقوة في تشييد بعض المنشآت (سد الفوسي، طرق، قناطر...).

-إجبار السكان على البناء وتمديد الطرق خاصة نحو مدينة تندوف التجارية ومركالة وتافكومت (أخبرني شخص تقاة أن رأى قنطرة لا تزال صامدة في وجه الدهر بهذه المناطق المجاورة للحدود).

-إستغلال الثروات المعدنية بالمجال خصوصا الذهب بمنطقة بوزاريف(لم يتم التنقيب عنه إلا بعد الإستقلال).

-تأسيس إدارة محلية ممثلة في(محاكم/ محكمة القاضي المقيم/ مكاتب العدول).

5-مقاومة المستعمر بالمنطقة: مرحلتي المقاومة وجيش التحرير.

أ: مرحلة المقــاومة المسلحة.

لم يكن زحف القوات الفرنسية من سوس نحو المنطقة أمر سهلا ويسيرا، إذ لم يكن أمامها سوى نهج سياسة التهدئة بالقوة العسكرية، إذ وجدت هذه القوات أمامها رد فعل قوي ممثل في مقاومة شرسة من طرق قبائل المنطقة لا تقل أهميتها عن باقي مقاومات المجتمع؛ السياسية والإجتماعية والثقافية والإقتصادية[1]. هذه المقاومة لها كذلك خصوصياتها والتي مرت بدورها من عدة مراحل ومعارك قطعتها في مسار مواجهة الإستعمار الفرنسي المتوغل بمجال إدواكنسوس في إتجاه أقا[2].

معارك المقاومة بالمنطقة[3].

بوصول القوات الفرنسية لإيغرم وأمام تقدمها نحو إسافن[4]، تحركت قبائل المنطقة من أجل التصدي لهذا الزحف بكل الإمكانات المتاحة، وقد تجلت هذه المقاومة المحلية عبر عدة معارك بارزة في تاريخ المنطقة.

-معركة أمان نتازارت.

بعد مواصلة زحفه في إتجاه مركز إسافن نايت هارون، إصطدم الفرنسيون بمقاومة قبائل إدواكنسوس، حيث تصدت له بشكل مباشر بهجومات مباغتة من جبال المنطقة، وذلك بالرغم من "**سلاحها البسيط الممثل في النبادق التقليدية والخيول**"[5]. إلا أن التفوق العسكري للقوات الفرنسية جعل هذه المعركة تحسم لصاح الفرنسيين وإنهزام المقاومة المحلية[6].

-معركة إدوسكا.

بعد الهزيمة الأولى لقبائل إداوكنسوس في التصدي للزحف الفرنسي بالمنطقة، عادت قبائل المنطقة من جديد للمواجهة، وهذه المرة بتحريض ودعم من القائد المدني الأخصاصي البوزكارني[7]، الذي وحد قبائل أقا وطاطا لمواجهة هذا الزحف للمجال، إلا أن هذه المعركة لم يكتب لها النجاح كذلك "**فسرعان ما إنتهت بهزيمة هذه القبائل وفرارها نحو إميتك وتيزكي إداوبلول، إذ عاد القائد المدني لبويزكارن بعد فشل وقفه للزحف الفرنسي في إتجاه أقا**"[8].

-معركة أنونادم.

شكلت نكسات المقاومة المحلية لقبائل إداوكنسوس في وقف التقدم الفرنسي نحو مجالي طاطا وأقا، نقطة هامة لعودة المقاومة بالمنطقة، إذ بعد تقدم القوات الفرنسية ووصولها لمجال إميتك وإنشائها ثكنة عسكرية تطل على سهل واسع بمنطقة انونادم، ستبرز من جديد طلائع المقاومين لهذا الوجود الفرنسي بالمنطقة، تتميز هذه الحركة "**بمقاومة ضارية وقوية نظرا لعدد المقاومين الكثير القادمين من قبيلة ايت أوسى وبعتادهم، إذ قدموا للمنطقة بحوالي 600 جمل وبأسلحة متنوعة**"[9]، ما كان لنتيجة هذه المقاومة نتائج مختلفة تماما عن سابقاتها. فهذه المقاومة ستصطدم مع الفرنسيين وتباغتهم في ثكنة

---

1 عبد الرحمن الزكيتي، **جيش التحرير: مقاومة إجتماعية بأفق مفتوح**، مجلة الذاكرة الوطنية، العدد.19، 2012، ص.59.

2 الحسين نوحي، م.س، ص.42.

3 هناك أخبار كثيرة عن هذه المقاومة في المعسول، الجزء الثالث، الصفحة 400.

4 الحسين نوحي، م.س، ص43.

5 نوحي إبراهيم، **محمد بن حمو والحسن الثاني وأسباب الإندماج**، طباعة ونشر سوس، الطبعة الأولى، أكادير، 2012، ص.9.

6 الحبيب نوحي، م.س،

7 ينظر. المختار السوسي، المعسول، الجزء الثالث، ص.385.

8 الحسين نوحي، م.س، ص.44.

9 الحبيب أمزي، م.س.

أنونادم وكبدتهم "**خسائر كبيرة تجلت في قتل عدد من جنودهم وتدمير عتادهم، ما إضطر بالقوات الفرنسية إلى إستعمال الطيران الحربي لصد هذا الهجوم ما أثر على نتيجة هذه المعركة كثيرا**"[1].

لقد ألت وضعية المقاومة بانونادم إلى الإنهزام شر هزيمة على يد الفرنسيين وإستشهاد 17 من رجالات المقاومة، إذ لا تزال قبورهم بادية بجوار هذه الثكنة المذكورة[2]، وبإخماد هذه الحركة المسلحة تمكن المستعمر الفرنسي من تهدئة المنطقة وإخضاعها بالقوة، ليتحرك بعدها منها بشكل مباشر للدخول إلى طاطا ومنها إلى أقا كذلك، لتدخل هذه المناطق مرحلة أخرى متسمة بمرحلة الإحتلال والوجود الأجنبي بها، والذي بدأ مند سنة 1934م حتى ميلاد جيش التحرير الجنوبي بها سنة 1956م.

ب: مرحلة جيش التحرير.

-النواة الاولى لجيش التحرير بأقا.

بعد ميلاد جيش التحرير بالشمال بهدف تحرير المغرب من الإستعمار الفرنسي والإسباني، بدأت تحركاته بالجنوب لإعلان ميلاد جيش تحرير الجنوب بدوره، "**والتي بدأت بعد إنطلاق محمد بن حمو قادة وأخرين من مراكش نحو سوس والصحراء من اجل البحث ن مركز للقيادة لهذا الجيش**"[3]، حيث حددت طاطا كمقر أولي لهذا الجيش وذلك "**بإقتراح من بولحيا الطاطائي الأصل وإتجهت الأنظار للحصول على دعم القائد بونعايلات لهذا الجيش، والذي توج بإجتماع رباعي[4] خلص إلى إنشاء مقر جيش التحرير الجنوبي بطاطا**"[5].

ببداية جيش التحرير أعماله التي بدأت بإعتقال القواد الكبار بسوس والمتعاونين مع المستعمر[6]، سرعان ما تراجع القائد الطاطائي بونعيلات عن قراره خاصة "**بعد إعتقال صديقه القائد براهيم التيوتي، ما جعل قادة جيش التحرير يغيرون مقر ومركز الجيش إلى أقا**"[7]، والذي سيبدؤون منها عملهم وتحركاتهم العسكرية ضد الوجود الفرنسي بهذه المناطق.

-سلاح وعتاد جيش التحرير بالمنطقة.

كما هو حال جيش التحرير الشمالي من نقص في السلاح والدعم[8]، واجه كذلك جيش التحرير الجنوبي ذات الإكراه، إذ جل سلاحه كان عبارة عن عتاد تقليدي بسيط غير ثقيل، وذلك "**من قبيل البنادق والرشاشات سلمت للمقاومين من طرف مكتب المقاومة بالدار البيضاء**"[9]. غير أن تحركات المجاهدين من جيش التحرير الجنوبي في الميدان غيرت من حجم وقيمة ونوعية هذا العتاد، وذلك بعد أن "**غنمت عناصره كميات كبيرة من الأسلحة من منازل القواد المتعاونين مع المستعمر وكذلك ما تركه الجنود الفرنسيين بعد هروبهم من أقا في إتجاه فم الحصن وتندوف**"[10]، هذا التحول الكبير والنوعي ساهم في تغيير خطة عمل قيادة جيش التحرير بأقا، والتي ستتبلور لديها خريطة طريق واضحة لتوسيع نطاق عملياتها إنطلاقا من أقا نحو باقي المناطق الجنوبية[11].

-تحركات جيش التحرير نحو المناطق المجاورة ونقل مقره لكلميم.

بعد تزايد تمويله المادي وتزايد أعداد المجاهدين المنظمين لصفوفه[12]، توسعت المناطق التي شملتها عمليات جيش التحرير الجنوبي إنطلاقا من مركزه بأقا، والتي إتجهت صوب "**أيت وابلي وفم الحصن وإشت، خاصة بعد إتخاده قرارات مصيرية من أقا تحديدا المتعلقة منها بمصير الضابط الفرنسي القبطان مورو**"[13]، ما جعل القوات الفرنسية تزيد من قواتها خاصة بالمنطقة بعد زحف جيوشها من مدينة الصويرة واكادير في إتجاه

---

1 الحسين نوحي، م.س، ص.44.

2 توجد هذه القبور في الجهة الشرقية لموقع تكنة انوانادم في الضفة اليمنى للواد الموجود امام التكنة.

3 إبراهيم نوحي، حوار مع جريدة باني نيوز، الجزء الخامس، العدد.2014.

4 ضم هذا الإجتماع حسب رواية المقاوم نوحي ابراهيم: القائد الحسين بونعايلات، إدريس العلوي، بولحيا، النقيب مولاي إبراهيم بم المهدي الحبيبي.

5 نوحي إبراهيم، حوار بجريدة باني نيوز، م.س.

6 الحسين نوحي، م.س، ص.48.

7 إبراهيم نوحي، حوار جريدة باني نيوز، الجزء الرابع، العدد.2014.

8 محمد بن سعيد أيت يدر، م.س، ص.17.

9 إبراهيم نوحي، محمد بن حمو والحسن الثاني وأسباب الإندماج، ص.9.

10 إبراهيم نوحي، م.س،، ص.9.

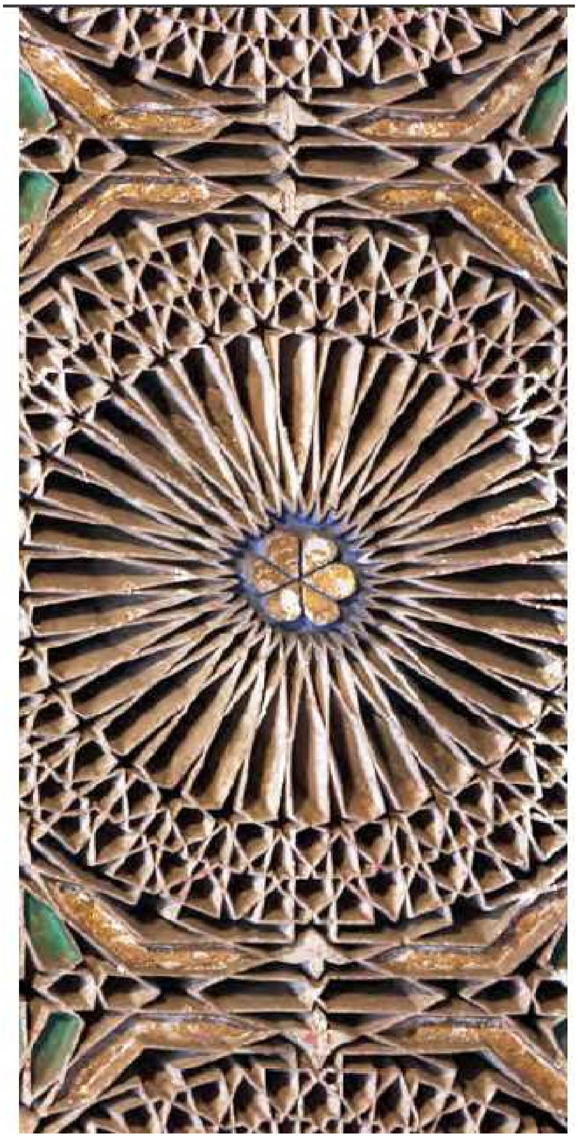
11 إبراهيم نوحي، م.س، ص.6.

12 الحسين نوحي، م.س، ص.49.

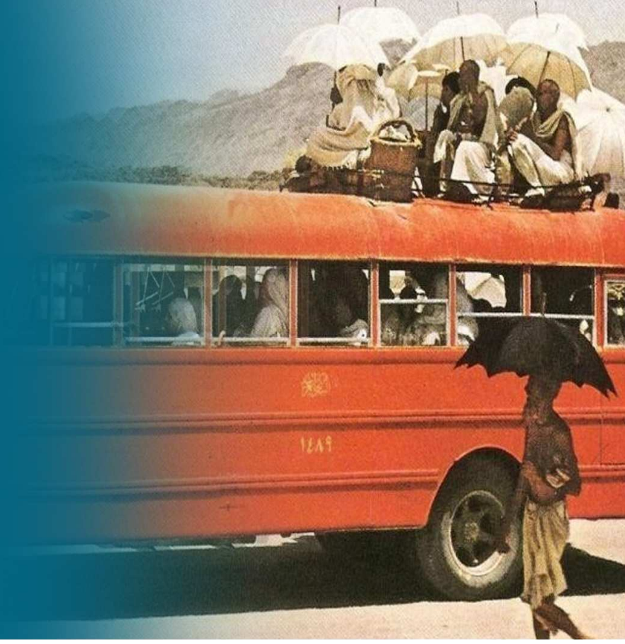
13 إلهام بنجدية، "نوحي براهيم: جيش التحرير قرار تصفية إمبراطورية الكلاوي"، جريدة المساء، جريدة المساء، العدد 21/08/2014.

أقا وفم الحصن[1]، وفي خضم هذا التصعيد رد جيش التحرير "**بتطويق القوات الفرنسية بفم الحصن والقبض على القبطان اليوطنا بيران الذي كان يبحث عن الضابط مورو**"[2].

هذه التحركات على الأرض لم تمر دون نشوب صدام ومعركة بين الطرفين، والتي تمخض عنها إندلاع معركة "بالقرب **من إشت والتي إستعمل فيها الجيش الفرنسي الطيران الحربي والمدفعية الثقيلة**"[3]، هذه المعركة كانت لها أصداء كبيرة على الصعيدين الوطني والمحلي، والتي ستزيد من قوة جيش التحرير الجنوبي وتسريعه في تحركاته نحو الجنوب والصحراء، كما ثم كذلك نقل مقره من أقا إلى كلميم[4]، من أجل مواكبة هذه التحركات على الأرض، ومن أجل مزيدا من تحرير للأرض من المستعمر الفرنسي والإسباني.



[1] إلهام بنجدية، م.س
[2] إلهام بنجدية، م.س
[3] نوحي براهيم، مقاوم، 15 فبراير 2015، أقا.
[4] نوحي براهيم، مقاوم، 15 فبراير 2015، أقا.



مؤسسة ركب الحاج المغربي



العاقل محمد
باحث في تاريخ المغرب

يطرح التوجه نحو الشرق إشكالات كبرى من أهمها إشكالية الطريق التي يجب إتباعها. فاختيار الطريق لم يكن عشوائيا بل كان يخضع لمجموعة من الشروط، من أهمها الوجهة المقصودة الدوافع الطرق الأكثر استعمالا والأقل خطرا... غير أن هذه الشروط لم تكن وليدة المرحلة بل كانت موجودة منذ تبلور فكرة الرحلة وبداية الركب المنظم وقد أخذ هذا الطريق وجهتين مختلفتين: طريق بري، وآخر بحري

إننا نسجل أنه خلال القرنين 17 و 18 نجد أن معظم الركاب التي إستعملت الطريق البري التقليدي وإستعمال الطريق البحري لم يظهر بشكل جلي إلا مع نهاية القرن 18 وبداية القرن 19 وهذا مايدفعنا إلى التساؤل حول أسباب هذا التحول ؟

إن صعوبة الطريق وحيثياته تفرض على الرحالة الأخذ بمجموعة من الإعتبارات أنتجتها الظروف الطبيعية والبشرية والتي ستعترض طريقهم فكان لا زاما عليه أن يحدد الطريقالتي سيسلكها وأن يضع تخمينا مسبقا للمشاكل التي ستستعرضه" إن موضوع الطرق المؤدية إلى الشرق تكتسي أهمية بالغة نظرا لإرتباطها الوثيق بشخصية الرحالة (الرغبة في تحقيق الهدف) وبالهدف من الرحلة، وأيضا بالصورة التي سيتم إنتاجها عن الشرق، مما يعطي للرحلة بعدا المغامرة والأسطورة"[1]

ويعود الفضل في معرفة هذه الطرق إلى الرحلات الحجازية نظرا إلى "مؤسسة ركب الحاج التي أنشأها ينطلق منها مخلفة بذلك صدى طيب لدى من سلكوها واصفين لنا أدق التفاصيل الرحلة ومراحلها ومامدى الإنطباع الحسن أو السيئ الذي تركته الطريق في نفسية الراكب، وما القاه من علماء وشيوخ وزوايا ومدارس.

ويعود تاريخ الركب المغربي إلى العهد الموحدي كما يوضح ذلك الأستاذ محمد المنوني" يصعد تاريخ ركب الحاج المغربي إلى أواسط العهد الموحدي ويعود الفضل في تأسيسه للإمام الشهير أبي محمد صالح الماجري المتوفى سنة 631 هـ فقد كان من أهم أركان طريقته الدعوة لحج بيت الله الحرام وزيارة قبر النبي عليه السلام وجعل من أصحابه كجمعية تبشيرية تدعوا لتلك الغاية السامية وإستمر على هذا سائر حياته وانتهج نهجه من خلفه من رؤساء طريقته ردحا من الدهر"[4] من خلال هذا النص الذي أورده المنوني نقلا عن " المنهاج الواضح،لأبي العباس السي أحمد بن ابراهيم" يتبين لنا أن الركب المغربي كركب منظم بدأ مع الدولة الموحدية وبالضبط سنة 631هـ الموافق ل 1233م، وهذا لا يعني أن المغاربة لم يكونوا يعرفون الحج على العكس من ذلك كان المغاربة عبر التاريخ يتقنون فن الرحلة لكن التدوين والتوثيق لها كان يكاد يكون شبه معدوم إن لم نقل معدوما. لقد كان لتأسيس الركب الصالحي وما لاقاه من الإهتماماتتأثير بالغ ونتائج مفيدة وقد أولى أبو محمد صالح شيأ كثيرا من عنايته فأسس الرباطات العديدة ليزورها الحاج المغربي في ذهابه وإيابه من آسفي إلى الحجاز وبث أصحابه في هذه

[1] مصطفى الغاشي، **الرحلة المغربية والشرق العثماني محاولة في بناء الصورة**،مؤسسة الإنتشار العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى 2015. ص 349

[2] مصطفى الغاشي، م .س. ص 350

[3]محمد المنوني، من حديث الركب المغربي، مطبعة المخزن، تطوان 1953. ص 8

[4] محمد المنوني، من حديث الركب المغربي،م.س. ص 7

ERROR: ioerror
OFFENDING COMMAND: image

STACK: